مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

الأستاذ مترى قندلفت

أحد مؤسسي المجمع العلمي العربي

١٢٧٥ - ١٣٥٢هـ
١٨٥٩ - ١٩٣٣م

تأليف
أيهم ميشيل بطحوش

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

الأستاذ متري قندلفت

أحد مؤسسي المجمع العلمي العربي

مجمع اللغة العربية بدمشق

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

مجمع اللغة العربية بدمشق

الأستاذ متري قندلفت

أحد مؤسسي المجمع العلمي العربي

١٢٧٥ – ١٣٥٢هـ

١٨٥٩ – ١٩٣٣م

تأليف

أيهم ميشيل بطحوش

١٤٣٧هـ – ٢٠١٦م

الأستاذ متري قندلفت

رحمـــه اللـــه

فهرس

الصفحة

تقديم ٩

المقدمة ١١

الفصل الأول

- سيرته وأعماله..... ١٥

نشأته وحياته..... ١٧

نفيه إلى الأناضول..... ٢٠

متري قندلفت عضوًا في مجمع اللغة العربية ٢٣

أعماله المجمعية ٢٤

قندلفت نائبًا ومميزًا في معهد الحقوق العربي ٣٠

أليس متري قندلفت..... ٣٢

وفاته ٣٣

الفصل الثاني

- آثاره العلمية والأدبية..... ٣٥

أ- آثاره المطبوعة ٣٧

أولًا : الكتب المترجمة..... ٣٧

الصفحة

١- كتاب المدرسة والاجتماع ٣٧

٢- كتاب طرق الأمان لمحدث الإيمان..... ٣٩

٣- كتاب مدرسة الصلاة ٤٢

ثانيًا: شعره ٤٣

- قصيدة زفرات الأشجان..... ٤٣
- قصيدة أخلاق المهذب الكريم ٤٩
- قصيدة مناجاة الإيمان ٥١

ثالثًا: مقالاته وبحوثه: ٥٣

- مجلة المقتطف..... ٥٣
- مجلة الحسناء..... ٥٤
- مجلة النعمة ٥٤

مختارات من بحوثه :..... ٥٧

- القول الحق في سورية ودمشق ٥٧
- توما رايت وإسعاد الآخرين ٦٢
- الاستبداد الصحي..... ٧٠
- من هم رجال الغد..... ٧٨
- لمحة نظر في منافع تمدن الغرب للشرق ٨٢
- المواقع الجغرافية وقوة الممالك ٨٩

الصفحة

- العلم يقود إلى السلم ١١١

ب- آثاره المخطوطة ١٢٥

- كتاب تربية الأطفال ومدارسهم ١٢٥

- كتاب مدرسة الغد ١٢٦

المصادر والمراجع..... ١٢٧

تقديم

لم يكدِ الأتراك يجلون عن سورية حتى قامت فيها حركة نشطة لاستبدال اللغة العربية بالتركية، وبناءِ الوطن الحرّ، وقد تمَّ ذلك بسرعةٍ وإتقان.

ورأى «مجمع اللغة العربية بدمشق» في هذه الحركة تجربةً فريدة تستحقُّ الدراسة والتحليل، ويستحقُّ الذين شاركوا فيها أن يُعْرفوا ويُشْكروا وتُنْشر سِيرُهم وآثارهم، فأوكل في سنة ٢٠٠٧ إلى لجنةٍ من أعضائه القيام بالتعريف بأعضاء «المجمع العلمي العربي»[١] الأوائل، والكتابةِ عمَّن لم يُكتب عنه منهم وجمع ما أمكن من آثارهم ونشره اعترافاً بفضلهم وإحياءً لذكراهم.

وقد قامت اللجنة بواجبها على خير وجهٍ وأرضاه، ووضعت برنامجاً لعملها، واستكتَبت عدداً من المؤلفين الكبار، واختارت منهم من كانت تربطه بالمؤلَّف عنه رابطة صداقة أو زمالة أو نسب. وفي إثر ذلك بدأ المجمعُ إصدارَ سلسلةٍ من الكتب من أعضائه المؤسِّسين ومن تلاهم. وصدر العددُ الأول من هذه السلسلة في سنة ٢٠١١م، وما زال المجمع ماضياً في إخراج بقيَّتها.

ويسرُّ المجمع أن يصدر اليوم كتابَه عن المجمعي الأستاذ متري قندلفت أحد

(١) الاسم السابق لمجمع اللغة العربية بدمشق.

مؤسسي هذا الصرح وعضو فيه، وهذا الكتاب من تأليف الأستاذ أيهم ميشيل بطحوش.

والمجمع إذ يرجو أن يُتمَّ ما بقي من سلسلة كتبه عن المجمعيين الراحلين – رحمهم الله – في أقرب وقت، ليتوجَّهُ بالشكر الجزيل إلى لجنة أعمال أعضاء المجمع وإلى السادة المؤلِّفين على جهودهم الطيبة المثمرة.

مجمع اللغة العربية بدمشق

مقدمـــة

زخرت سورية في عصر النهضة برجال كانوا روادًا في مختلف مجالات الحياة السياسية والعلمية والثقافية، ساهموا في التحرّر من طواغيت الجهل والاستبداد والفقر الذي طغى على المجتمع العربي آنذاك بسبب الممارسات الجائرة للحكم العثماني، وأرّقتهم الحال المتردّية التي وصلت إليها البلاد، فاستقصوا عن الأسباب الحقيقية لهذا التردّي وعملوا على نشر الوعي بين الأهالي، ودعوا إلى التعليم ومحاربة الخنوع والمطالبة بالحقوق الاجتماعية والسياسية. وكانت دمشق الحجر الأساس في خوض هذه النهضة حيث ظهر فيها رجال أفذاذ ذاقوا الأمرين في سبيل تحقيق أهدافهم وغاياتهم في التحرّر السياسي والاجتماعي، والمضي قدمًا بوطنهم لمواكبة الحضارة الإنسانية الحديثة، وكان من بينهم ابن دمشق الأستاذ المجمعي متري قندلفت صاحب ترجمة هذا الكتاب الذي جسّد روح عصره في حبّه وإخلاصه لوطنه قولًا وفعلًا، فدعا إلى التعليم باللغة العربية وإدخال التعليم الإلزامي إلى المدارس وتهيئة المناخ والمنهاج السليم لهذه الغاية، ولم يهمل الدور الهام والأساسي للمرأة في مجتمعها حين طالب بمساواتها بالرجل في التعليم والعمل وإدخال مواد

خاصة بها تدرّس في المدارس؛ كمادة أعمال التدبير المنزلي والخياطة، كي يوفِّر لها مستقبلًا آمنا وحياة كريمة في المجتمع .

وكانت حاله حال الرجال الوطنيين في عصره تعرّضَ إلى أسوأ ما يمكن أن يعيشه الإنسان من اعتقال ونفي. ومع ذلك، لم ييئس بل كان إيمانه بوطنه وأمته أقوى من كل تلك العقبات والظروف القاسية التي واجهته .

اتّخذ الأستاذ قندلفت منهج الانفتاح على الآخرين في كلّ نواحي الحياة؛ فهو من رجالات النهضة الذين لم يكن ينتمي إلى طائفة بعينها بل انتمى إلى الإنسان، فالدين عنده ليس مجرّد طقوس وعبادة يمارسها المرء بل حياة يعيش فيها مع الآخرين ، فجسّد كلّ ما كتبه عن الدين والدنيا في حياته وسلوكه.

وقد تميّز بقدرته على استشراف المستقبل، فأثبت في بحوثه امتلاكه الوعي والقدرة على فهم وتحليل تاريخ الأمم والحضارة في مواضع عدّة. والقارئ المتأمل سيتعرّف رأيه الحصيف النابع من قراءاته المكثفة والحثيثة لنشوء الأمم وتطورها.

وكتب في العديد من العلوم الإنسانية ولاسيما في بحوثه التي تتناول الجوانب الاجتماعية والنفسية والتربوية والجغرافية. وكان منها المخطوط والمطبوع، ومعظمها مازال بعيدًا عن متناول القرّاء بسبب فقدانه لمكتبته القيّمة مرّتين في أثناء نفيه وترحاله، لكننا استطعنا بعد بحث طويل وشاق أن نجد مجموعة من بحوثه وأشعاره كان قد نشرها في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في صحف و مجلات عدة أصبحت مفقودة ونادرة بحكم زمنها وتاريخها. والقارئ

سيشعر بأهمّية بحوثه ومقالاته، ولذلك سنعمل على نشر أعماله كاملة بعون الله لما لها من مصداقية وأهميّة حتى في عصرنا هذا.

فالأديب متري قندلفت رجل نهضويّ موسوعيّ متعدّد المشارب والثقافات، آمن بالعلم والانفتاح على الحضارة الإنسانية والانتماء للوطن الذي أحبّ فأفنى حياته من أجل نهضته، فهو من طينة هؤلاء الرجال العظماء رجال النهضة الذين كانوا قدوة لأجيال جاؤوا من بعدهم، وأرادوا لهم التعلّم والعمل للارتقاء بالوطن، وكانوا خير جسر للعبور إلى نهضة الأمة .

الفصل الأول

متري قندلفت

سيرته وأعماله

متري قندلفت

نشأته وحياته:

ولد متري[١] إبراهيم قندلفت[٢] في دمشق عام ١٨٥٩م، كان والده صاحب معمل لصناعة الحرير، وحاله حال أغلب الآباء في عصره يمنّي نفسه أن يرى ابنه بجانبه في عمله المتوارث، إلا أنّ طموح متري لم يتفق مع رغبة والده في مشروعه،

(١) «متري» كان يكتب اسمه بهذه الصيغة في بداية حياته وهو الدارج على ألسنة من عرفوه، وفي بعض كتبه ومقالاته كان يكتب «ديمتري» وهو الأصل عند تعريبه عن اللاتينية «ديمتريوس»، وكان يوقّع ما يحرّره ويكتبه باسمه الصريح تارة، وبالحرفين الأولين من اسمه (م. ق) تارة أخرى.

– مجمع اللغة العربية في خمسين عامًا – د. عدنان الخطيب – مطبعة الترقّي بدمشق، د. ت. ص ١١٧ و ١٢١.

(٢) قندلفت من اليونانية " KANDELAFTIS "، من يقوم بإشعال قناديل الكنيسة، ثم أطلق على خادمها، وفي العربية: الحلاذي، والسادن، والواهف، وخادم البيعة.

موسوعة حلب المقارنة، الأسدي خير الدين، حلب، ط١ ، مج ٦ ، ١٩٨٧م ، ص ٢٦٣ .

فما كاد ينهي تحصيله الأولي في مدارس الطائفة الأرثوذكسية في دمشق حتى ظهر ميله وشوقه للعلم والمعرفة، فدأب على قراءة ومطالعة الكتب ليل نهار، متّخذًا التعلّم الذاتي طريقة يسلكها، وبات شغفه الوحيد متابعة تعليمه والبحث عن مصادره أينما وُجدت، مما جعل والده يخضع لرغبة ابنه الطامح إلى العلم والمعرفة، فساعده على الالتحاق ببعض المدارس الأهليّة، كما سمح بحضوره مجالسَ بعض شيوخ عصره من العلماء، فشبَّ الولد وهو يُتقن العربية والتركية، ثمّ تهيّأت له الفرصة لتعلّم اللغة الإنكليزيّة عن كثب عندما تعرّف وهو في ريعان الشباب إلى سيّدة أمريكيّة حضرت إلى دمشق مع بعثة تبشيريّة هي الآنسة «كروفرد»، فأخذ يتردّد عليها بقصد تلقّي الإنكليزيّة عنها، وكان توّاقًا لتعلّم هذه اللغة بجدّية كبيرة وتفانٍ مطلق، وهذا ما جعل معلمته ملتزمة تعليمه بودٍّ وإخلاص، وأحاطته بعطفها حين توسّمت فيه النباهة والذكاء والاستعداد الفطريّ لتعلّم اللغات، ونتيجة تلقيه الدروس والحوارات المطوّلة معها في مجالات متنوعة تحوّل الأستاذ قندلفت عن مذهبه الأرثوذكسي إلى مذهبها الإنجيلي، فأخذ يساعدها في نقل المواعظ والخطب الدينيّة إلى العربيّة، ونظرًا لبراعته في الترجمة دفعت إليه كتابًا في الوعظ الإنجيلي ليعمل على ترجمته، فأنجز عمله على أكمل وجه.

هذه البداية الناجحة شجعته على طلب المزيد من العلم والمعرفة، فانصرف إلى المطالعة والاستزادة من مختلف أنواع المعرفة وكتب العلوم الحديثة، حتى لمع اسمه في ظلام ذلك العصر الحالك، وأخذت بعض المدارس الخاصة تكلفه تدريس اللغة

الانكليزية والعلوم الاجتماعية إلى جانب قيامه بترجمة الكتب الاجتماعيّة والتربويّة والدينيّة، ونشر العديد من المقالات والبحوث والقصائد في المجلّات العربيّة.

ومع نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، طالبَ عدد من العلماء ورجال الفكر العرب بإنهاء الاحتلال التركي عن بلادهم، فكان الأستاذ قندلفت من عداد هؤلاء المفكرين الذي أمر جمال باشا السفاح بنفيهم مع أُسرهم إلى تركيا بحجّة الحفاظ على أمن الجيش، وبقي في المنفى حتّى نهاية الحرب العالميّة الأولى.

عاد إلى دمشق بعد هزيمة الأتراك في الحرب العالميّة الأولى عام ١٩١٨م، وقد قامت فيها أول حكومة عربية مستقلة، فعيّن أستاذًا في مدرسة التجهيز وفي دار المعلمين يدرّس علم النفس والتربيّة والإنكليزيّة.

عزّزت الحكومة إصلاحاتها في البلاد، فأنشأت ديوان المعارف، فعُيِّن عضوًا فيه لتضلّعه باللغة العربيّة وإتقانه التركيّة والإنكليزيّة، وتميّزه في مجال الترجمة.

وعندما تأسّس المجمع العلميّ بدمشق كان عضوًا مؤسّسًا فيه، ثم نُقل مُميّزًا إلى معهد الحقوق العربيّ، وبقي فيه إلى أن أُحيلَ على التقاعد في عام ١٩٢٤، ثم رحل إلى بيروت وأقام فيها، فعكف على الترجمة والتأليف متنقّلًا بين لبنان ومصر لهذا الغرض[١].

---

(١) مجمع اللغة العربيّة في خمسين عامًا، ص ١١٧ و ١٢٠.

وأيضًا: – مصادر الدراسة الأدبيّة، يوسف أسعد داغر، الطبعة الألفيّة، مكتبة لبنان، بيروت، ج٣، ص ١٠١٥ – ١٠١٦. =

نفيــه إلى الأناضول:

في نهايات القرن التاسع عشر استنكر رجال النهضة العربية ما أسموه الاحتلال العثماني لبلادهم من خلال الأحزاب والجمعيات السرّيّة منددّين بالحال التي وصلت إليه بلدانهم من تخلّف وفقر وجهل، وتعالت أصواتهم في الصّحف والجرائد المناهضة للعثمانيين محاولين الكشف عن القناع المزيّف الذي تختبئ وراءه السلطنة العثمانيّة، فأقيمت المؤتمرات والندوات ولا سيّما في الدّول الأوربيّة التي طالبت بإنهاء الاحتلال العثمانيّ للبلاد العربيّة.

ونتيجة الأوضاع السياسيّة والاقتصاديّة المتأزّمة في البلاد قام عدد من علماء دمشق وأعيانها وتجارها ومفكريها، ومن بينهم الأستاذ قندلفت، بكتابة بيان (برقيّة) إلى السلطنة العثمانيّة استنكروا فيه عقد مؤتمر باريس وقراراته، وكان الهدف من هذا البيان إيجاد توازن مع السلطة العثمانيّة متمثّلة بحكم جمال باشا السفّاح لاجتناب الفوضى والأذى للشّام وأهلها وعلمائها كردّة فعل على تلك النشاطات، على الرغم من قناعة غالبيّة الموقّعين على البيان الرفض القاطع للاحتلال العثمانيّ وإنهائه.

= – الأعلام، خير الدين الزركلي، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠، ج٥، ص ٢٧٣.

– معجم البابطين لشعراء العربيّة في القرنين التاسع عشر والعشرين، الكويت، ط١، ٢٠٠٨م، مج١٥، ص ٣١٧.

وهذا نصّ البيان:

(نشر بعض السوريين المعروفين في أوربا بيانًا صرّحوا فيه أنّهم سيعقدون مؤتمرًا للوقوف في وجه الاحتلال الأجنبيّ في سوريّة وفي فلسطين الذي تلمِّح إليه جرائد أوربا، ودعوا لمعونتهم من يهمّه وقاية الوطن العثماني من هذا الاحتلال، فاستحسن مسعاهم كلّ صادق لوطنه، مخلص لدولته.

قد بلغنا أنّ جماعة في دمشق قاموا يُقَبّحون مناهضة هؤلاء لاحتلال الأجانب كأنّه سرَّهُم ما حلَّ بإخوانهم في طرابلس الغرب والروملي من النكبات المؤلمة، فساء عملهم هذا كلّ محبّ للخلافة الإسلاميّة والسلطنة العثمانيّة، مُبغض للسيطرة الأجنبيّة.

فنحن بصفتنا من أفراد الأمة العثمانيّة المخلصين، نحتجّ على أولئك الجماعة المعاكسين لمسعى مواطنينا في أوربا المبني على خلاص النيّة للدولة والوطن، ونعرض لفخامتكم أنّنا بريئون من هذه المعاكسة المريبة، ونسترحم إنقاذ اللائحة الإصلاحيّة المتقدّمة قبلًا لمقامكم السامي من المجلس العموميّ لواسطة ولاية سورية، والأمر لوليه)[1].

وقد عقّبت الجريدة على هذا البيان بأنّ هؤلاء الموقّعين هم مفكرو الأمّة الذين يهمّهم نجاح البلاد وراحة العباد، ويعتقدون أنّ سعادتهم تتوقّف على سعادة الأمّة، وأنَّ شقاء الأمّة يشقيهم، وأنّ طلبهم المحقّ الذي ليس فيه إلّا طلب الحياة السعيدة

(١) جريدة المقتبس، دمشق، السنة الخامسة، ٣١ / ٥ / ١٩١٣، عدد ١٢٠٥، ص ٢.

لهذه الأمّة الحزينة، وكلّ آمالهم حفظ الخلافة الإسلاميّة والسلطة العثمانيّة لتبقى البلاد عثمانيّة. وبلغ عدد الموقّعين على البرقيّة (٨١) فردًا من خيرة أهل البلاد والعباد[١].

ولم تمضِ أشهر قليلة حتّى بدأت رحلات النفي تطال العلماء والمفكرين الذين شكّلوا خطرًا على السلطة بأفكارهم وآرائهم، فقد أمر جمال باشا السفّاح قائد الجيش العثماني في سورية بنفيهم مع أُسرهم بحجّة أنّ آراءَهم تخالف سياسة الأتراك في هذه الحرب من جهة، وتحافظ على أمن الجيش من جهة ثانية.

وقضى الأستاذ قندلفت مدّة نفيه في مدينة طوقان من أعمال سيواس في تركيا حتى انتهاء الحرب وقيام أول حكومة عربيّة مستقلّة في سنة ١٩١٨، وقد نجم عن هذا النفي المفاجئ ضياع المكتبة القيّمة التي كان قد اقتناها، إضافة إلى فقدان جميع أوراقه الخاصّة والكتب المخطوطة التي أفنى زهرة شبابه في نقلها إلى العربيّة[٢].

(١) جريدة المقتبس، دمشق، السنة الخامسة، ٣١ / ٥ / ١٩١٣، عدد ١٢٠٥، ص ٢.

(٢) مجمع اللغة العربيّة في خمسين عامًا، ص١٢٠.

متري قندلفت عضوًا في مجمع اللغة العربيّة[١]:

قامت أول حكومة عربيّة في سورية خريف عام ١٩١٨ بعد خروج الأتراك منها، وبدأ معها مشروع إحياء اللغة العربيّة وإعادة مكانتها وألَقها بعد أن أُهملت واضمحلّت وتراجعت أمام سياسة التتريك التي اتّبعها الأتراك لبسط هيمنتهم على البلاد والعباد ما يقارب أربعة قرون، دخل عليها الكثير من المصطلحات والمفردات التركيّة والأعجميّة والعاميّة، فكان من أولويات حكومة الاستقلال إيجاد آليّة جديدة للنهوض باللغة العربيّة وإحيائها، فأُحدثت هيئة أُطلق عليها لجنة الترجمة والتأليف، وتبعها عدّة لجان؛ منها لجنة المعارف ولجنة التعريب وهدفها تعريب لغة الدواوين الحكومية، فعملت هذه اللجان بجد ودأب، ثم ما لبثت أن دُمجت كلها تحت مسمّى ديوان المعارف برئاسة الأستاذ محمد كرد علي، وكان من مهامه النظر في شؤون المعارف عامّة وتأسيس دار للآثار، وإقامة المكتبات العامة ومنها دار الكتب الظاهرية وبناء المدارس الحكومية والإشراف عليها ووضع مناهج لها، وبعد أشهر قليلة اقترح الأستاذ كرد علي على الحاكم العام العسكريّ بدمشق تسمية جديدة للديوان تلبّي نشاطه واتّساع أعماله ومهامه الموكلة إليه، وتخدم حركة الترجمة والتأليف، فاستبدل المجمع العربيّ بديوان المعارف في ٨- ٦- ١٩١٩م، وعقدت أولى جلساته يوم

(١) مجمع اللغة العربية بدمشق كان اسمه عند تأسيسه المجمع العلميّ العربيّ عام ١٩١٩.

الأربعاء في ٣٠-٧-١٩١٩[١].

وكان الأستاذ قندلفت واحدًا من أعضائه العاملين المؤسّسين الذين حضروا أولى جلساته برئاسة الأستاذ محمد كرد علي[٢]. في مقرّ المجمع الكائن في المدرسة العادليّة الكبرى[٣].

أعماله المجمعيّة:

تفرّغ الأستاذ قندلفت للعمل المجمعيّ منذ تأسيسه، وكانت أولى مهامه الإشراف على طباعة مجلّة المجمع[٤] والتحرير فيها، فقام بهذه المهمّة خير قيام، وقد

(١) تاريخ المجمع العلميّ، أحمد فتيح، مطبعة الترقي، ١٩٥٦، ص٢- ١٥.
- مجمع اللغة العربيّة ، تعريف تاريخي، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة، ص ٣- ٨.
- مجلة المجمع العلميّ العربيّ بدمشق، ج١ ص٢ و٣.

(٢) والأعضاء هم: أمين سويد، أنيس سلوم، متري قندلفت، سعيد الكرمي، عبد القادر المغربي، عز الدين علم الدين، عيسى إسكندر المعلوف.
انظر: (تاريخ المجمع العلميّ ، ص٩و ١٠- مجلة المجمع، ج١، ص٢).

(٣) نسبةً إلى الملك العادل أبي بكر أيوب أخي الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب (الأيوبيّ) المتوفى سنة ٦١٥هـ، وتقع مقابل دار الكتب الظاهرية، بالقرب من الجامع الأمويّ، ثم انتقل المجمع إلى مقرّه الجديد في المالكي على ضفة نهر بردى(تورا) في عام ١٩٨٠م.

(٤) كانت المجلّة تصدر شهريًا حتّى عام ١٩٣١، وغدت تصدر كلّ شهرين حتّى عام ١٩٤٩، ثم أصبحت فصليّة تصدر في أربعة أعداد في السنة، وما تزال تصدر حتّى الآن وهي من أقدم مجلّات المجامع العربيّة وأطولها عمرًا. =

صدر عددها الأوّل في ١- ١- ١٩٢١، وكتب فيها في باب (آثار وأخبار) وصف بعض العاديات التي اقتناها المجمع في دار الآثار العربيّة[١]، وكانت إدارتها جزءًا من عمله. وقد ذكر في تقديمه للمقتنيات الآليّة التي اتّبعها المجمع للحصول عليها كالشراء أو الاستهداء من أهل الفضل الذين سُجلت أسماؤهم في سجل خاص حُفظ في المجمع تخليدًا لذكراهم، وقد جمعت هذه المقتنيات تدريجيًا بعد عناء طويل وتحرٍّ شديد من التحقيق والتدقيق بمعرفة أصحاب الخبرة وأرباب العاديات من تجّارها الأمناء.

وقدّم الأستاذ قندلفت شرحًا وافيًا في وصفه العديد من التماثيل الفينيقية والحثّية واليونانيّة وغيرها الكثير من القطع القيشانيّة والزجاجيّة والخزفيّة والمعدنيّة من حيثُ أحجامها ورسومها وأشكالها وعددها والأماكن التي أحضرت منها.

وتطرّق أيضًا إلى وصف أنواع الأسلحة الموجودة ومنها سيف الصحابيّ أبو عبيدة بن الجرّاح، وبعض الدروع القديمة ومنشؤها، كما وصف في أحد أبواب بحثه النقود والعملات الذهبيّة والفضيّة والنحاسيّة، وما وُجِدَ عليها من كتابات ونقوش ورموز مع تحديد عصرها وعددها، وجاء عرضه للمقتنيات الأثريّة بدّقة وأمانة،

= انظر: (تاريخ المجمع العلمي ص١٧٥، ومجمع اللغة العربية ص١٤).

(١) خصّص المجمع أربع غرف لعرض الآثار في مقرّه بالمدرسة العادليّة. أطلق عليها اسم دار الآثار العربية. (انظر مجلّة المجمع، ج١، ص٣).

وكانت المقتنيات النواة الأولى لتأسيس المتحف الوطنيّ السوريّ[١].

كما عرّف الأستاذ قندلفت ببعض الكتب المهداة إلى المجمع مثل كتاب «الأخلاق والواجبات» تأليف الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربيّ، ويقول في تعريفه للكتاب: (غير خافٍ أنّ الجهل بالأصول الاجتماعيّة الإسلاميّة الصحيحة كان ولا يزال من أقوى دواعي التنافر النفسيّ بين فرق الشرق المذهبيّة بالشقاق الوطنيّ القوميّ على الأخلاق، ولم يقتصر هذا الجهل على من لم يسعدهم الزمان بواسع الاطّلاع من غير المسلمين، بل تناول الجمّ الغفير من سواد العامّة وفريقًا يسيرًا من أدعياء العلم العصريّ والتنوّر الفكريّ من أهل الإسلام أنفسهم بما علق بالخواطر من الأوهام وسقم الأفهام)، ويتابع الأستاذ قندلفت في تعريفه للكتاب: (وقد سلك ،أي المغربي، في نظم عقوده ونسج بروده مسلك السهولة والانسجام على أسلوب عصريّ بليغ بديع النظام حتّى يخال للقارئ أنّه، وإن كان مبناه على أحاديث وآيات، يطالع كتابًا اجتماعيًا عصريًّا بحتًا مؤلّفًا لكلّ إنسان على اختلاف الملل والنحل والأعمار والأجناس، بل لا نجازف إذا قلنا إنّه قد يقع من نفس المسلم المنصف وغير المسلم فوق موقعه من المسلم لما يدهش الأول من وفرة هاتيك الآيات الاجتماعيّة والأحاديث الشريفة من جوامع الكلم وروائع الحكم التي لم تكن تدور في خلد أو

(١) مجلّة المجمع، ج١، ص ١٣ – ١٦.

– مجمع اللغة العربيّة في خمسين عامًا، ص٢٥٢.

تقع في حسبان مما حجبته ظلمات القرون وأورثته جهالة الإنسان)[١].

كما كتب الأستاذ قندلفت في باب (آثار وأخبار) عن الشيخ طاهر الجزائريّ العضو في المجمع العلميّ بمناسبة مرور عام على وفاته، ووصفه بمؤسس المدارس في سورية، وبأنه فقيد العلم العربي، وذكر عن حفل التكريم الذي قام به رجال العلم والأدب وطلّاب المدارس بكافة درجاتها في دمشق.

ويتابع الأستاذ قندلفت سرده (فسار الموكب من المجمع العلميّ حتّى بلغ دار الحكومة، فاستقبلهم حاكم دمشق حقّي بك العظم وحياهم مدرسةً مدرسة، ثمّ غادروا إلى قبر الفقيد في سفح جبل قاسيون، وقد قُدِّر عدد المحتفلين في هذه المناسبة حوالي ستة آلاف عالم وأديب وطالب) [٢].

وكتب الأستاذ قندلفت في باب (آثار وأخبار) في مجلّة المجمع عن الشيخ إبراهيم اليازجيّ في خبر تناولته الصحف آنذاك حول إقامة تمثال له في لبنان، فرأى أنّه من الواجب تجديد ذكراه على صفحات مجلّة المجمع اعترافًا بفضله العلميّ اللغويّ، فكتب وأسهب في أعمال اليازجيّ وذكر كلّ مؤلّفاته ومناقبه رغبة من المجمع في مشاركة أهلهم في لبنان لإنجاز هذا المشروع[٣].

ومن الأعمال المجمعيّة التي قام بها الأستاذ قندلفت إلقاؤه محاضرة في ردهة

(١) مجلة المجمع، ج١، ص٥٦ – ٥٧.

(٢) مجلة المجمع، ج١، ص ٥٤ .

(٣) مجلة المجمع، ج١، ص ٥٤ – ٥٦.

المجمع بعنوان «إحياء اللغة العربيّة»[١]، وكان من عادة المجمع منذ ١٢ نيسان ١٩٢١ أن يقيم محاضرة كلّ أسبوع، يحضرها جمهور كبير من أهل العلم والأدب، وقد عزّز محاضرات الرجال بمحاضرات أخرى تلقى على السيّدات جعل لها أوقات معلومة نظرًا للإقبال الكبير على محاضرات المجمع[٢].

(١) ألقيت مساء الجمعة ٢٢/ ٦/ ١٩٢١، إلا أنّ المحاضرة لم تنشر.

- مجمع اللغة العربية في خمسين عامًا، ص١٢١. وتاريخ المجمع العلميّ، ص٤٠. ومجلة المجمع، ج١، ص٣٩٣.

(٢) تاريخ المجمع العلميّ، ص٣٧– ٣٩.

- محاضرات المجمع العلميّ بدمشق، الجزء الأوّل، المطبعة الحديثة، ١٩٢٥، مقدّمة الكتاب.

الأساتذة أعضاء المجمع العلمي العربي في أوائل عهد تأسيسه:

الجالسون من اليمين: أمين سويد، أنيس سلوم، محمد كرد علي،

طاهر الجزائري، سعيد الكرمي

الوقوف من اليمين: متري قندلفت، عيسى اسكندر المعلوف،

عبد القادر المغربي، عز الدين التنوخي

قندلفت نائبًا و مُميّزًا في معهد الحقوق العربيّ:

أول ما قامت به الحكومة السورية عقب خروج الأتراك من البلاد تغيير الهيكل الإداري (أي الملاك)، حيث أوجدت في كلّ وزارة أو إدارة وظيفة (منشئ) لينشئ الرسائل والمكاتبات ويصوغ القرارات بلغة عربيّة سليمة، ثم زادوا ذلك فأصبح عندهم كاتب، وكاتب أساسي، ومنشئ، ومنشئ أول، ومُميِّز. وقد عرفنا من المنشئين في عام ١٩١٨ الأساتذة أنيس سلوم وشفيق جبري وعزّ الدين التنوخيّ وسليم الجندي، الذين أصبحوا لاحقًا أعضاءً في مجمع اللغة العربية بدمشق[١].

وكان معهد الحقوق أو ما يعرف بمدرسة الحقوق بدمشق قد تأسّس عام ١٩١٣، وحاجة المعهد إلى مشرفين إداريين جعلت وزير المعارف يصدر مرسومًا بتاريخ ١ – ٨ – ١٩٢١م يقضي بتعيين الأستاذ متري قندلفت نائبًا مُـميِّزًا فيه، وكانت مهمّته الإشراف الإداري والقيام بمهام الترجمة إلى العربيّة، وبذلك تمّ إنهاء تفرّغه من الأعمال المجمعيّة ليصبح من أعضاء المجمع المراسلين، وبقي في معهد الحقوق مُميِّزًا إلى أن أحيل على التقاعد في عام ١٩٢٤ [٢].

(١) من محاضرة بعنوان: «المجمعيون الأوائل، جهودهم في التعريب وآراؤهم الإصلاحية» ألقاها الدكتور مازن المبارك في الندوة التي أقامها مجمع اللغة العربيّة بدمشق، تحت عنوان: «أضواء مجمعيّة على مجالات الإصلاح» في ١٤ و ١٥ كانون الأول ٢٠١٤.

(٢) مجمع اللغة العربيّة في خمسين عامًا، ص ١٢١.

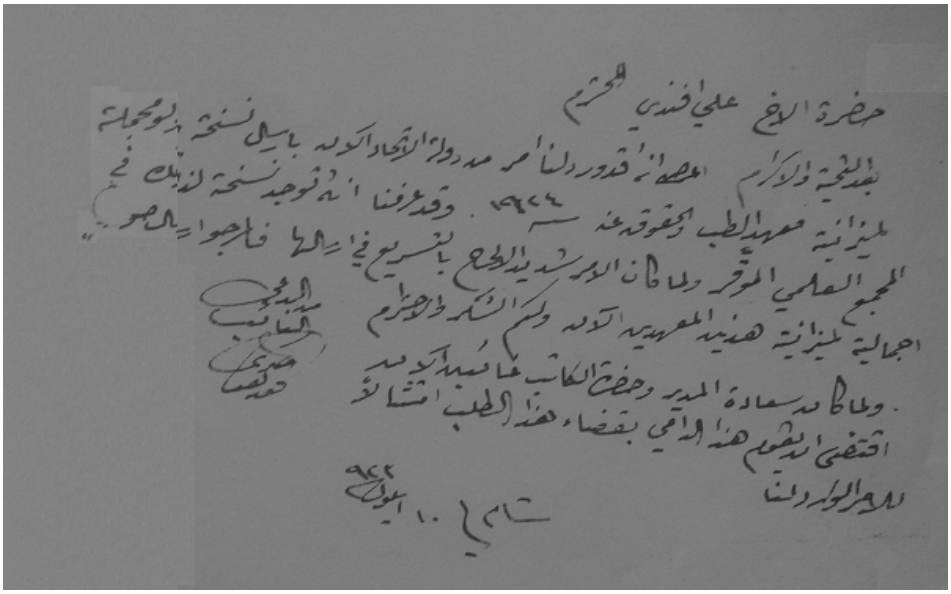

رسالة بخط يده، وكان نائبًا ومُميّزًا في معهد الحقوق بدمشق

وثيقة موجودة في مجمع اللغة العربية بدمشق

أليس متري قندلفت

هي الابنة الوحيدة للأستاذ متري قندلفت، ولدت في دمشق ودرست في مدارسها حتّى الثانوية، وتابعت دراستها العالية في الولايات المتحدة الأمريكية، وحصلت على درجة الدكتوراه في التّربيّة والتعليم من جامعة كولومبيا،

ولها العديد من المقالات والأبحاث والخطب السياسيّة والاجتماعيّة والأدبيّة بالفرنسيّة والإنكليزيّة والعربيّة[1].

(١) من هو في سوريّة، المطبعة الأهليّة، دمشق، ١٩٤٩، ص ٣٦١.

- مجمع اللغة العربيّة في خمسين عامًا، ص ٢٥٤.
- مذكراتي: صفحات من تاريخ سوريّة الحديثة، ١٩٢٠ – ١٩٥٨، حسن الحكيم، دار الكتاب الجديد، ط١، بيروت، ١٩٦٦م، في جزأين، ج١، ص ٥٤ و ٥٥.

وفاته: غادر الأستاذ متري قندلفت دمشق إلى بيروت بعيدَ إحالته على التقاعد سنة ١٩٢٤م، فاستقرّ فيها، وتفرّغ للترجمة والتأليف وتدوين مذكراته متنقّلا بين لبنان ومصر في سبيل ذلك إلى أن وافته المنية في بيروت سنة ١٩٣٣م وفيها دفن، وهو في الرابعة والسبعين من العمر.

الفصل الثاني

آثـــــاره

العلميّة والأدبيّة

أ- آثاره المطبوعة:

أولًا : الكتب المترجمة:

١ – كتاب المدرسة والاجتماع: "The school and society"

تأليف الفيلسوف الأمريكي جون ديوي "John Dewy"[(١)]، ترجمه إلى العربيّة الأستاذ متري قندلفت، وطبع في دار المعارف، بمصر ١٩٢٨، ويقع في (٢٠٩) صفحات.

وقد كتب الأستاذ قندلفت على غلاف الكتاب بيتين من الشعر:

مـــا ضَرَّهُ ألّا يكـــون كبـــيرًا إن كـــان حاصـــلُ نفعِـــه موفـــورا

بـل زادَ رونـقُ حسنه في العـين إذ كـــبرت منافعُـــه وكـــان صـــغيرا

يعدّ هذا الكتاب من أشهر الكتب في أصول التربيّة والتعليم لأهمّيته، وترجم إلى لغات عدة، وقام بتقديم الكتاب الأستاذ أمير بقطر[(٢)] أمين الجامعة الأمريكية في القاهرة حيث قال: (لقد أتيح لي أن أتصفّح الكتاب فصلًا فصلًا مع مقابلته بالأصل، والحقّ

---

(١) د. جون ديوي: (١٨٥٩- ١٩٥٢) مربٍّ وفيلسوف وعالم نفس، أمريكي، يعتبر من زعماء الفلسفة البراغماتية، والمؤسس الحقيقي لفلسفة التربية وله نظريات عديدة في التربية الحديثة.

– الموسوعة العربيّة، دمشق، ط١، ٢٠٠٤، مج ٩، ص ٥٨٨ – ٥٨٩.

(٢) قام بالتعريف بالكتاب في مجلة المقتطف، عدد حزيران، سنة ١٩٢٧م.

أنّني وجدت معرّبه الفاضل شديد الحرص على آراء المؤلّف، أمينًا في نقلها إلى العربيّة فقرة فقرة، إن لم أقل عبارة عبارة مع مراعاة المعاني وسكبها في قالب عربيّ قشيب، والمبالغة في التدقيق والتمحيص، انتقاءً للمفردات المناسبة للمكان المناسب، وكثيرًا ما يمرّ المعرّبون مرّ الكرام على العبارات الغامضة، فإمّا أن يطمسوا المعاني، أو يحذفوها حذفًا تامًا، فتخرج الترجمة مشوّهة مرقّعة، أما معرّب هذا السفر الجليل فقد توخى الدّقّة وأمانة الترجمة، وأحسن اختيار الألفاظ لتأدية المعنى بأسلوب لا تعوزه السلاسة ولا تنقصه البلاغة، خال من التعقيد والحشو والإطناب...

وليس جون ديوي بالمؤلّف السهل الذي يبسط آراءه فيدرك مغزاها لأوّل مرّة الصغير والكبير، وليس من السّهل على علماء الانكليزية من أهلها قراءة مؤلّفاته وفهم ألغازها، فكأنّ صاحبها أراد أن يصوغها في قالب من الألفاظ يناسب ما احتوت عليه من فلسفة المعاني وعمق الأفكار.

غير أنّ المعرّب لم يترك شاردة ولا واردة في الكتاب إلا وحلّ رموزها وأجلى غامضها، وأخرجَ السفّر للقرّاء درّة في تاج الأدب عامّةً، والتربية والتّعليم خاصّةً)[1].

وقد تضمّنَ الكتاب ثمانية فصول معنونة حسب ترتيبها كالآتي:

- الفصل الأوّل: المدرسة والتقدّم الاجتماعيّ.
- الفصل الثاني: المدرسة وحياة التلميذ.
- الفصل الثالث: التبذير والإسراف في التّهذيب.

(١) المدرسة والاجتماع، ص١٨ و١٩.

- الفصل الرّابع: سيكولوجيّة التهذيب.
- الفصل الخامس: مبادئ فروبل FROEBEL التهذيبيّة وهو مبدأ يقوم على تهذيب الطفل العقليّ بوساطة بستان روضة الأطفال والنظر إلى الألعاب والمسليات والمصطلحات الرمزية والتصوّر ومادّة الدرس.
- الفصل السادس: سيكولوجيّة الأعمال والأشغال.
- الفصل السابع: ترقية الانتباه والتفكير.
- الفصل الثامن: التاريخ في التهذيب الإعداديّ.

وقد أظهر الدور الكبير الذي تؤديه المدرسة في تربية الطفل من أجل المجتمع بقوله:

(متى ربّت المدرسة كل ولدٍ في الأمّة على مبدأ اجتماعيّ، تأتي لها هيئة اجتماعيّة خليقة بالمحبّة والاحترام، متناسبة الأعضاء، متلائمة الأجزاء، تسطع فيها أنوار البهاء).

٢- كتابُ طرقِ الأمان لمُحدَثِ الإيمان:

يقع هذا الكتاب في (٢٠١) صفحة من القطع الصغير، تأليف الأب بويد، ترجمه إلى العربية متري قندلفت، طبع في مطبعة الأمريكان، بيروت، د–ت.

قام الأستاذ قندلفت بترجمة هذا الكتاب إلى العربيّة بناءً على اقتراح الآنسة كروفرد التي درّسته اللغة الإنكليزيّة فرأت فيه الموهبة والحماسة، فضلًا عن إتقانه العربيّة وأسلوبه المميَّز وبلاغته بالإنشاء وحسّها الكبير بموهبته العلميّة والأدبيّة.

واستهلّ الكتاب ببيتين من الشعر نظمهما لغرض الكتاب، يقول:

يا مَنْ هداك الروحَ منهاجَ الفدى بــدمِ الحبيــبِ ونعمــةِ الــرّحمنِ
سِرْ فيه لا تخشَ الرّدى أبدًا فذي طــرقُ الأمــانِ لُمَحَــدث الإيــمانِ

بدأ الأستاذ قندلفت كتابه بإهداء شكر لمعلمته الآنسة كروفرد عدّد فيها خصالها الحميدة شاكرًا لها نُصحها له بترجمة هذا الكتاب ونشره، غير ناسٍ فضلها عليه فقال فيها (إلى مثال الصلاح والفضل وذات الطهارة والنبل، الحكيمة العارفة المكرّمة، لا زالت ظلال النعم عليها وارفة)، وقد خصّها ببيت من الشعر قال فيه:

إن رمتُ شُكرك لا أفيك بقطرهِ والــشكر قطــرٌ لا يحــيط بحــورا

ثم عرضَ شهادة السّيّد د.ل مودي[1] لهذا الكتاب تحدّث فيها أنّه وجد فيه ما يساعد المؤمنين في رحلتهم لمعرفة الحقّ والرجاء.

جاءَ الكتاب في أربعة عشر فصلًا، أحاطها بالمبادئ القويمة الأبديّة للتثبّت بالإيمان وتحكيم العقل وتنشيطه نحو الواجبات الدينيّة، والإيمان والابتعاد عن العادات الاجتماعية المتوارثة العابثة بمصلحة الأفراد التي ترسّخت في نفوس المهملين لواجباتهم حتّى أصبحت داءً مؤمنًا، وأضحت شعائر الدّين عندهم منسيّةً، إنّ هذا الكتاب هو دعوة حقيقيّة للتقرّب من الله والعمل الصّالح، وعدم التذمّر والخوف من النوازل والمصائب، والنظر إلى حقائق الدين الفريدة المنافع، وتحذير المؤمن من الوقوع في الخطيئة، وحثّ المؤمن على الجهاد الروحيّ المتمثّل في ذم التعصّب والاستبداد

(١) واعظ إنجيليّ أمريكيّ مشهور.

بالرأي وحبّ الذات والتهافت على تخطئة الناس، وعلى الأهل تربية أولادهم تربية صالحة قوامها الصدق والمحبّة وعمل الخير، وقد عزّز هذا الكتاب بالأمثلة والشواهد والقصائد الدينية والترانيم التي نظمها الأستاذ متري بما ينسجم مع موضوعات الكتاب نذكر منها هذه الأبيات التي قالها ليتّعظ بها ذوي الغفلة والإهمال الذين انصرفوا إلى الملاهي والمسرّات والملذّات الفانية:

يا عاشقَ اللذّات تهملُ توبة حتّى مَ تخدع بالرجاء الباطلِ
ليست حياتُك غيرَ طيفٍ في الكرى أو دمعةٍ قطرَت وظلٍّ زائلِ
والموتُ لصٌّ لست تعلمُ يومَهُ إن قلت يبطئُ زارَ أعجل عاجل[1]

كما تضمّن الكتاب بعض الترانيم الدينيّة المعبّرة التي نظّمها الأستاذ قندلفت، ومنها هذه المقطوعات التي ينصح الأخوة والأصدقاء بالمصالحة والمسامحة بالمحبّة الخالصة والصلاة والترفّع عن المعاتبة والاحتقار والعنف، وإنّ من يمنع الدّاء قبلًا خيرٌ من الدّواء بعد الوقوع:

١- لا تسارعْ لاغتياظٍ وقلِ الأمرُ مضى
وتعلّم من يسوعٍ روح حلمٍ ورضى
٢- إنّما السّخط كنار يلهب النّفس لهيب
يجعل الإنسان وحشًا إذ به العقل يغيب
٣- فإذا مسَّكَ سوءٌ من فتىً يبغي الخصام

(١) طرق الأمان لمحدث الإيمان، ص١٢.

أظهـــر الحـــبّ برفـــقٍ واصـــبر صـــبرَ الكـــرام
٤- ولـيكن صـلحُك عفـوًا لا لعجـــزٍ أو فخـــار
إنّـــما الحلـــمُ حقيـــقٌ يـــوم بـــأسٍ واقتـــدار
٥- وإذا هاجـــك غـــيظٌ فادفعنـــه بالـــصلاة
وامتنـع عـن سـوء لفـظٍ تلـــقَ بابًـــا للنجـــاة
٦- إنّ مـــن يـــذكر ذنبًـــا لـــه إن زلَّ صـــديق
يتناســـى الـــشّر حـــالًا وهـــو الخـــلُّ الحقيـــق
٧- إنـــما دنيـــاك ظـــلٌّ كـــلّ مـــا فيهـــا يـــزول
فكـــما الأفـــراحُ تمـــضي هكـــذا الأحـــزانُ تحـــول[1]

٣- كتاب مدرسة الصلاة:

يقع هذا الكتاب في (٢١٢) صفحة من القطع الوسط، وهو من تأليف القس أندرو مري، وترجمه إلى العربيّة الأستاذ متري قندلفت، وطبع في المطبعة الأمريكيّة ببيروت، ١٩٠٩م.

وقد ذكر في مقدّمة الكتاب أنّ من أهمّ الأسباب التي دعته لترجمة هذا الكتاب إظهار المعنى الحقيقي للصلاة كونها أسمى ما وُكّلَ إلينا من الأعمال وأصل كل عمل آخر، فيقول (متى تجرَّدت الكنيسة لهذا العمل المقدّس وهو الصلاة والابتهال من أجل الآخرين، فأسأله تعالى أن يستخدم هذا الكتاب المختصر، فيوضّح لبعض

(١) طرق الأمان لمحدث الإيمان، ص٥٩ و٦٠.

أولاده منزلة قوّة الصّلاة الفعّالة القادرة على إصلاح سلوك الخطأة الشاردين عن طريق الصّلاح والطهارة) [١].

ولتحقيق غايته في هذا الكتاب ضمّنه ثلاثة وعشرين مثالًا (مثالة) عن الصلاة من الكتاب المقدّس أسهب في شرحها لتصل إلى القارئ والمؤمن ليعلمَ منها القصد والغاية.

ثانيًا: شعره:

لم يترك الأستاذ قندلفت سفرًا أو ديوانًا لأعماله الشعرية، فربّما ذهبت أشعاره مع مكتبته التي نهبت وأحرقت أثناء نفيه إلى تركيا إبّان الحرب العالمية الأولى، إلا أنّنا بعد البحث في معظم المجلّات والصّحف التي كتب بها عثرنا على ثلاث قصائد من نظمه.

١ – قصيدة «زفرات الأشجان»[٢] نظمها في رثاء عمه يوحنا عنحوري:

هـو الخطـبُ مـا جفَّـت لديـهِ المـدامعُ
وذابـت أسَـىً منـه الحـشا والأضـالِعُ

(١) مدرسة الصّلاة، ص٤ و٥.

(٢) مجموع شعري، المبكيات، منظومات في تأبين يوحنا عنحوري، المطبعة الأدبية، بيروت ١٨٩٠.

– معجم البابطين لشعراء العربيّة في القرنين التاسع عشر والعشرين ،الكويت ، ط١، ٢٠٠٨، مج١، ص٣١٧– ٣١٨.

فكـم غـاضَ مـن نـارِ الفـؤادِ دموعـهُ!
وكـم بـردتْ نـارُ الفـؤادِ الهوامـعُ!
أهيلَ الهوى ما الدّمعُ منكم كمصرعي
وكـم في النـوى للعاشـقين مـصارعُ!
فلـو دامَ لي دمـعٌ لأطفـأتُ نـارَكم
ومـا دمعُكـم في نـار قلبـي نـافعُ
ورُبَّ كئيـبٍ لـيس تنـدى جفونُـه
ورُبَّ نـديِّ الجفـنِ خِـبٌّ مُخـادعُ
وللجفـنِ يبقـي في التـصبُّر مطمـعٌ
ولكـن مـع الأحـشاءِ تُفنـى المطـامعُ
وكيـفَ يُرجـي الـصَّبرَ إنْ ينـأ قلبُـه
ولـيس لهـذا النـأي في الأرض راجـعُ
نـأى القلـبُ حفظًـا للعهـودِ مُخلِّفًـا
أسـاهُ وليـتَ العهـدَ في القلـب ضـائعُ
فهـل حاجـةٌ للـصّبرِ في مرتـعِ الهنـا؟
وهـل في جنـان الخلـدِ زرعٌ وفـاجعُ؟
فـما ضرُّه لـو اتبـعَ الـصبرَ بالأسـى
وكـلٌّ بحكـمِ العقـلِ للقلـبِ تـابعُ

أسّــى عنــده صــبرٌ ومــوتٌ تقاضَــيا
فــأين الــذي يقــضي وأيــنَ المــدافعُ؟
أسّــى فيــه شرعُ الحــقِّ أضــحى مــضيَّعًا
وإن كــان قلبــي الخــصمَ مــن ذا أنــازعُ؟
يُمثّلــــه أهــــلُ القــــريضِ لخــــاطري
وتــــأبى ســــواهُ في الكــــلامِ المــــسامعُ
فلــم يبــقَ في الإفــصاح غــيرُ حروفــهِ
ولم يبــقَ في الإيــضاح معنًــى مطــاوعُ
فــإن قلــتَ غــصنٌ مــورقٌ ضــمَّه الثــرى
فهــل تُرتجــى دون الــترابِ اليوانــعُ؟
وإن قلــتُ غــابَ البــدرُ فالبــدرُ عائــدٌ
أو البحــرُ غــاضَ قلــتُ دمعُــك شــافعُ
نعــم في الحــشا غــصنٌ ســقتهُ مــدامعي
وقلبــي عليــهِ الــدّهرَ بــالنوحِ ســاجعُ
نعــم غــابَ عنّــا البــدرُ قبــل اكتمالــه
فــــــتمّ بمــــــسراه وردَّ المنــــــازعُ
وإن غــابَ ذاك البــدرُ يُحجَــبُ نــورُهُ
وقــد غــابَ هــذا والــسّنا منــه ســاطعُ

تـوارى بـأفقِ الغـربِ والـشرقِ مطلـعٌ
وهـل كوكـبٌ إلّا مـن الـشرقِ طـالعُ؟
تغـــرَّب في نفـــسٍ نَـــزوعٍ إلى العُـــلا
ومـــا نالهـــا إلا نفـــوسٌ تنـــازعُ
وغـــامَرَ لا يـــستعظمُ الحتـــفَ دونهـــا
ولـــيس عظـــيمٌ في المنـــونِ ودافـــعُ
بعـــزمٍ يعـــيرُ الماضـــياتِ مـــضاءَه
وكـــم فُنيـــتْ بـــالعزمِ بـــيضٌ قواطـــعُ!
فحـــلَّ عـــلى قـــومٍ كـــرامٍ مكرَّمًـــا
فعـــزَّت بـــهِ أهلـــوهُ والعـــزُّ شـــائعُ
وقـــامَ عـــن الأوطـــان أســـطعَ حجـــةٍ
وقـــد جمعتـــهُ للعظـــام المجـــامعُ
يكـــرُّ عـــلى الفرســـانِ في حُلَّـــةِ النهُّـــى
وفي حومـــةِ الألبـــابِ تُقـــضى الوقـــائعُ
تفـــانى بـــه حبًّـــا وهـــذي حياتُـــه
ونـــالَ فنـــاءً مـــن حيـــاةٍ تخـــادعُ
ومـــن لم يمـــتْ في حبِّـــه فهـــو مـــدَّعٍ
وأكثـــرُ مـــا تلقـــى مـــن الحـــبِّ خـــادعُ

وكــلُّ هــوًى في غــير علــمٍ ضــلالةٌ
وكــلٌّ إلى مــوتِ الــضلال يــسارعُ
نعــم في الهــوى شركُ الهــوان وإنّــما
عــلى غــيره قــد حرَّمتــه الــشرائعُ
فــما هــامَ إلا في المــروءةِ والنّــدى
ومــا شــاقَه إلا همــامٌ يقــارعُ
ولم يرثِــهِ إلا الوفــاءُ وأهلُــهُ
ولم يبكِــهِ إلا أديــبٌ وبــارعُ
ولـو كـان يـدري فـضلَهُ مـا نفـى الهـوى
وهـل في هـوى ذي الفـضل نـافٍ ومـانعُ
فكــان شــقاءً للمحبــين منــذرًا
بــأنَّ الأمــاني والغــواني خــوادعُ
يُفــدّيك قــومٌ في الحيــاة وإن تمُــتْ
يمُــتْ ودُّهُــم لؤمًــا وتبقــى الطبــائعُ
خِــساسٌ يعــدّون الــولاء تجــارةً
وكلّهــمُ في الــودِّ شــارٍ وبــائعُ
وإنْ يــدّعوا سَــبقًا فــإنَّ ســباقهم
بــساحةِ أهــل اللــؤمِ والــذّم نــائعُ

فإحسانُهم ختلٌ ومجلوبٌ حُسنهم
يباعُ كأنّ الحسنَ فيهم بضائعُ
ولا غروَ أن يهوى الزمانُ لثامَه
ففي اللَّؤمِ ما بين العشيقينِ جامعُ
ولا بدعَ أن تهواه كلُّ قبيحةٍ
فمن قُبْحِه تُلقى عليها البراقعُ
أرى الدهرَ هيَامَا ببارقةِ الصّبا
على شيبه والشيبُ في البرق لامعُ
ولكنَّ زهوًا في الصّبا معَه ينقضي
وكلّ أخي نبلٍ وإنْ شابَ يافعُ
وإن ساءَ من لحن المقالِ إشارةٌ
فإن لم يُشر قولي تدلُّ الأصابعُ
كذا سنَّة العلامِ في أمرِ خلقه
تُعَفّى المباني ثم تُبْنى البلاقعُ
ولابدَّ للأيامِ من عثراتها
وقد بشّرتنا في الطريق الطلائعُ
إذا ضاقَ ذرعُ الصبر في ساحة البَلا
فلُذْ فيه تلقَ أنَّ صبرَك واسعُ

وإن تـرضَ يَحْـلُ الـصبرُ في مـن فقدتَـه
ولـيس يُرَجّـى الـصبرُ إنْ ضـلَّ جـازعُ
ولـو حُـرِمَ النـاس الحِـمامَ لـشاقّهم
ومـا صـبروا والـصّبرُ في المـوت واقـعُ
(تعـزّ فـلا شيءٌ عـلى الأرض باقيًـا)
ومـا المـالُ والأهلـونَ إلا ودائـعُ

٢- قصيدة بعنوان «أخلاق المهذب الكريم»[1]:

ربُّ المحاميـدِ تُعْليـهِ مفـاخرُهُ وصـاحبُ الفـضلِ لا تَفنـى مـآثرُه
ومـن بغـى الخـيرَ تمجيـدًا لخالقِـه يُنِلْـهُ مجـدًا بـما تنـوي سرائـرُه
وأفـضل الخـير مـا شـمَّت منافِعُـهُ تؤيـدُ الـدينَ والـدنيا أواصِرُه
حـقٌّ صـفيٌّ يغـذي الـنفس في شِـبعٍ نـورٌ سـنيٌّ يُـضيءُ العقَّـل بـاهِرُه
مـن كوكـب الـبرِّ تُـستَجلى حقائِقُـه مـن سـدرةِ المنتهـى تُجـلّى أزاهـرُه

❁ ❁ ❁

وإن أبقـى جميـلٍ أنـت صـانعهُ تقويمُ خُلق وغصنُ القلب نـاضرُهُ
فالخلق كالطفل ما يرضعهُ مُرضعهُ تبـدُ عـلى كـبرٍ منـهُ مظـاهرُه
وقد قضى الرشدُ أنَّ العلم في صغرٍ لا كنـز في الأرض تحكيـه جـواهرُه
يقـوده في سـبيل لا يحيـد بـهِ عـن الهـدى ودليـلُ الـروح نـاصرُه
يـصونهُ مـن فـساد القلـب في حـذرٍ والقلـبُ أفـسدُ خـدَّاعٍ تحـاذرُه

(١) مجلّة النعمة، دمشق، السنة ١، مج ١، نيسان ١٩١٠، ص ٧٠٧- ٧٠٨.

ويـذخرُ العـزُّ في علـم يـصانُ بـه وكـم وقـى الـشيخ مـن ذُلٍ ذخـائرُه
يـدنو لـه الغـرَض الأقـصى بنـور هـدى ويعـتلي ذروةَ الإفـلاك خـاطرُه
ويـذكر الأمـر إن غابـت مـشاهدُهُ ويـستوي عنـده المـاضي وحـاضرُه

❁ ❁ ❁

يلطِّـف الأدبُ الـسامي خلائقـهُ فتجذبُ الروحَ من لطف عناصرُهُ
ويقهرُ الخصمَ في حبّ السلام وكم والاك خـصمٌ وذاك الحـبُّ قـاهرُه
مـا سلَّ في حربـه سيفًا سـوى رشـدٍ أن جـاءَه مـن كُـماة الجهـل شـاهرُه
ويُـسعدُ البـائسَ المـسكينَ نائلُـه وربُّـهُ عنـد مـسِّ الـضر ذاكـرُه
يكـفُّ عـن مَحْـرمٍ كـفّ الحـرام ولا يميـلُ طرفًـا إلى ريـبٍ يُخـامرُه
يـرى الـسرورَ بإحكـام الحكـيم ولـو رَأيتـهُ بالأسـى شُـقتْ مرائـرُه
يهـيمُ في صـدره هـمُّ الـورى كرمًـا كـأنَّما الـصدر واديـهِ وحـاجرُه
ولا يـرى فيـه مـن ذنـبٍ سـوى أملٍ هـو الزّمـانُ وهـل ترجـى غـوادرُه؟
يُهـوِّنُ الـصبرُ منـهُ كـل نائبـةٍ ويحمـلُ الجمـرَ إن هاجـت مجـامرُه
والـصبر للمتقـي حلـوُ المـذاق وإن مـرَّت أوائلُـه تحلـو أواخـرُه

❁ ❁ ❁

هـذي خلاصـةُ آدابِ العلـومِ فـإن رأيـتَ خـيرًا فقـلْ منهـا مـصادرُهُ
فكـلُّ سـاعٍ لتهـذيبِ النفـوسِ لـه قـدرٌ إلى الآن لم يعلمـه قـادرُه
وشـأنهُ قـد عـلا أوج العـلى شرفًـا وذكـرُه فـاقَ نـشرَ الطيـب عـاطرُه
بيتُ القـصيدِ لـربّ الـسحر يقـصده في كـلّ معنـىّ عليـه دارَ شـاعرُه

كالبدر يسطعُ في هذا الفضاء فمن ... يميلُ عنهُ إليهِ عادَ ناظرُه
يُعلي صروح الهدى في الأرض مفتخرًا ... وأيُّ صرحٍ غدا فيها يُفاخرُه
يقودُ بالرأي جيشَ العلم في رشدٍ ... وقائد العلم منصورٌ عساكرُه
فينتضي من مواضي العزم بارقها ... وصاحبُ العزم تحميه بواترُه
هو الهزازُ الذي من لحنه طربُ الـ ... ـنادي وفي سحره اهتزت منابرُه
وبهجةُ الأرضِ في إرشاد مرشدها ... ذا أول الأمر في الدّنيا وآخرُه

❁ ❁ ❁

٣-قصيدة بعنوان: « مناجاة الإيمان»[1]:

لا بدعَ إن أصبحَ شهيد هواكا ... ربّي فإنّي هائمٌ بعلاكا
فالموتُ فيك حياتُنا فمن ابتغى ... حقّ الحياة هو الذي يهواكا
والجسمُ قيدٌ للنفوس فكلُّنا ... نهوى انحلالًا كي نحلَّ حماكا
يا بارئَ الأكوانِ يا قطبَ الورى ... من ذا الذي يقضي فروضَ ثناكا
أنت الذي بسماء قدسِك ساكنٌ ... هل ترتضي قلبًا طغى سكناكا
فانظرْ إلهي من سمائك راحمًا ... عبدًا لعونِ لا يرومُ سواكا
وأبن لهُ من شمس رشدك ما أتى ... من باطلٍ يتبعُ سبيلَ هداكا
وافضِ عليه روحَ قدسك ظاهرًا ... واخلق له قلبًا رضاه رضاكا
واغفرْ ذنوبًا لا تعد لأجل من ... بدمائه أبدى عجيبَ فداكا
ابنٌ وحيدٌ لم يكن بدءٌ له ... نورُ الهداية مظهرٌ لسناكا

(١) مجلة النعمة، دمشق، السنة ٣، مج٣، تموز ١٩١١، ص ١٣١ – ١٣٣.

شخصُ الكمال يجلّ عن إدراكنا ... ما كانِ من ندٍّ لهُ إلاَّكا
روحُ الوجود وجودُه من جودِه ... خلقَ الورى وظهورُه مرآكا
جلَّى القداسةَ والهدايةَ للملا ... أهدى لنا ما شاءَ من نعماكا
أولى العداة محبّة أبديّة ... حتّى غدا الشريرُ فيه ملاكا
ضمنت لمعشر دينه كفارةٌ ... مجدًا تخلد في نعيم سماكا
قومٌ لنصر الحقّ ما رهبوا الردى ... إذ ضمّهم يومَ الزحام لواكا
أنصارُ دين الله من أيمانهم ... أن يدحروا البطلان والإشراكا
فسيوفُهم آياتُ وحيك إن بدت ... ولّت جيوشُ الكافرين دراكا
أبطالُ حربٍ إن تلُح لقلوب آ . ساد الشرى كانت لهم إشراكا
من كلّ قرم في الوغى إن أطفئت ... قدحت عزيمتُه لظىً وعراكا
قلْ للّذي في الكفر طالَ سفاهة ... أقصر فها سيفُ العلّيِ علاكا
إن تدّعِ أنَّ النّهى القاضي فقلْ ... من ذا الذي بخلافه أفتاكا
فشموسُ أحكام الكتاب سواطعٌ ... وكأنّ باهرَ نورها أعماكا
يا أيّها الإنجيلُ إنّك قد سريـ . ـتَ مع البدور فمن يصدُّ سُراكا
وعلى ذرى الأفلاك قد نشرت لك الـ . أعلام من ذا طاول الأفلاكا
أبشر أخيّ فإن دينك ظافرٌ ... أبدًا وربُّك عاضد يمناكا
ودع الكفور يهيج في أحشائه ... مرض يشابه أن يكون حكاكا
كم سبَّ ربَّ الفضل من في نعله ... قد لا يساوي أن يكون شراكا
ولئن عرا جسم الونى حكم الضنى ... فالروح تقوى هذه سلواكا

لا تجـزِعَنَّ لنائـب فـوق الثـرى ... واصـبر لـه فالـصبرُ كـم نجَّاكـا
لـو نـالَ كـلّ منـه فـوق مـرادِه ... لعـرا الـورى خلـلٌ يجـرُّ هلاكـا
فالكـلُّ سـارَ في عنايـة كامـل ... فاجعـلْ رضـاه مـا حَييـتَ مناكـا
سـعدًا لمـن وقـفَ الحيـاةَ لمجـده ... في كـلِّ حـالٍ والفـؤادُ هناكـا
نـورُ الرّجـاءِ سراجُـه وكتابُـهُ ... منهاجُـه مـن ذا المقـام لـذاكا
فهنـاك مجـدُ نـوره شـمسُ الحيـاة ... مـسيحنا مـن للخـلاص هـداكا
وهنـاك مغنـى الفـائزين نعيمُـه ... أبـدًا يقـيمُ فحبّـذا مغناكـا

❁ ❁ ❁

ثـالـثـًا: مقالاتـه وبحوثـه:

للأستاذ متري قندلفت بحوث ومقالات في مجلّات عدّة تناول فيها مجموعة من الموضوعات هي:

١ – مجلّة المقتطف:

– ناموس النشوء في تقديم العمران، الجزء الأول، المجلّد ٢٨، ك٢، ١٩٠٣، ص ٣٧– ٤٠.

– ناموس النشوء في تقدّم العمران، (تتمّة)، الجزء الثالث، المجلّد ٢٨، آذار، ١٩٠٣، ص ٢١٨ – ٢٢٤.

– ناموس النشوء في تقدّم العمران، (تتمّة لما قبله)، الجزء الثامن، المجلد ٢٨، آب، ١٩٠٤، ص ٢٠ – ٢٤.

٢– مجلة الحسناء اللبنانيّة:

– المرأة الإسرائيليّة في العصر القديم، السنة الثالثة، الجزء التاسع، ١٩١١، ص ٣٩٨–٤٠٦.

– المرأة الإسرائيليّة في العصر القديم، السنة الثالثة، الجزء العاشر، ١٩١١، ص ٤٤٦–٤٥٣.

٣– مجلّة النعمة[١]:

السنة	المجلد	الجزء	الصفحة	العنوان
٣١ آب ١٩٠٩	١	٦	١٧٧ – ١٨٢	الجرائد الدينيّة وحاجتنا إليها
٣١ ك١، ١٩٠٩	١	١٤	٤٤٣ – ٤٤٥	الاستبداد الصحيّ
١٥ ك٢، ١٩١٠	١	١٥	٤٨١ – ٤٨٥	الاستبداد الصحيّ (تتمة)
ك٢، ١٩١٠	١	١٦	٥٠٧ – ٥١٣	السلام لجلالة إليصابات ملكة الرومان
آذار ١٩١٠	١	١٩	٦٠٧ – ٦١١	من هم رجال الغد
أيار ١٩١٠	١	٢٣	٧٣٩ – ٧٤٩	لمحة نظر في منافع التمدن الغربي للشرقي وأضراره
حزيران ١٩١٠	٢	١	٣٠ – ٤٠	تأثير الإقليم في الأمم والتعليم
أيلول ١٩١٠	٢	٤	٢٢٥ – ٢٣٥	عقائد الأقدمين

(١) صدرت المجلّة في عامها الأوّل ١٩٠٩ نصف شهريّة، وفي العام الثاني لها غدت تصدر شهريّة منذ شهر حزيران ١٩١٠.

العنوان	الصفحة	الجزء	المجلد	السنة
ناموس الدور والانقلاب	٢٨٣–٢٨٩	٥	٢	ت١، ١٩١٠
ناموس الدور والانقلاب(تتمة)	٣٥٥–٣٦١	٦	٢	ت٢، ١٩١٠
تعليم الشريعة في عالم الطبيعة	٤٣٠–٤٤٠	٧	٢	ك١، ١٩١٠
الأحوال الخارجية، علل الشقاء أم الأسباب الطبيعية	٥٤٣–٢٥٢	٩	٢	شباط ١٩١١
والفضل ما شهدت به الأعداء	٦٩٧–٧٠٢	١١	٢	نيسان ١٩١١
المواقع الجغرافية وقوة الممالك	٦٤ – ٧١	١	٣	حزيران ١٩١١
المواقع الجغرافية وقوة الممالك (تتمة)	٢١١–٢١٨	٣	٣	آب ١٩١١
نِعم العِلم في تقدم الاجتماع	٣٢١–٣٢٩	٤	٣	أيلول ١٩١١
المرأة الإسرائيلية في العصر القديم	٢٨٢–٢٩١	٤	٣	أيلول ١٩١١
المرأة الإسرائيلية في العصر القديم (تتمة)	٤٠٧–٤١٤	٥	٣	ت١، ١٩١١
ديانة الفلسطينيين القدماء	٤٦٠–٤٦٥	٦	٣	ت٢، ١٩١١
مراقي الطبّ التاريخية	٤٩٥–٥٠٢	٦	٣	ت٢، ١٩١١
نِعم العِلم في تقدّم الاجتماع (تتمة)	٥٥٧–٥٦٣	٧	٣	ك٢، ١٩١١

السنة	المجلد	الجزء	الصفحة	العنوان
ك١، ١٩١١	٣	٧	٥٦٧–٥٧٧	قدماء المنجّمين ومجوس بيت لحم
ك٢، ١٩١١	٣	٨	٤٦٩–٤٨٢	المرحوم بطرس قندلفت
آذار، ١٩١٢	٣	١٠	٨٣٠–٨٤٠	مراقي الطب التاريخية (تتمّة)
آذار، ١٩١٢	٣	١٠	٨٤٠–٨٤٢	كيف ترقّت ديانة العبرانيين (١)
نيسان، ١٩١٢	٣	١١	٩٠١–٩٠٤	كيف ترقّت ديانة العبرانيين (٢)
أيار، ١٩١٢	٣	١٢	١٠١٥–١٠٢٢	العلم يقود إلى السلم
حزيران، ١٩١٢	٤	١	٢٥–٣٥	احتياط الأمريكيين لعواقب اختلاطها بالمهاجرين
تموز، ١٩١٢	٤	٢	١١٥–١١٩	منافع تمدّن الغرب للشرق وأضراره
آب، ١٩١٢	٤	٣	١٩٧–٢٠٦	فلسفة الجغرافيا
أيلول، ١٩١٢	٤	٤	٢٩٧–٣٠٩	كيف ترقّت ديانة العبرانيين (٣)
ك٢، ١٩١٢	٤	٨	٦٤٧–٦٤٨	ذبائح الفلسطينيين الأقدمين

وقد اخترنا بعضًا منها لتُظهر الموضوعات التي شغلت تفكير الأستاذ قندلفت، وآثرنا نقلها كما وردت في المجلات.

القولُ الحقّ في سوريَّـة ودمشق(*)

من قلم جناب متري أفندي قندلفت

كيف نُنفَى يا قومي من نسبة الجهل ونُعفَى من تبعة القصور، ونحن نسكن للذلّ ونرتاح إلى الغرور وما تُجدينا الجدود، نرفع مقامهم بذكر جدّهم وفضلهم وقد خفضنا من شأنهم بخمولنا وكسلنا، ولِمَ شقَّ علينا بعض ما روى من مذامنا صاحب (أخلاق الدمشقيّين)، وقد تبيَّنا منه محضَ المحبّة الوطنيّة، وعلّمنا من مقالهِ خلوص النّصح والنيّة؟ فلا غرو أنّ النفوس كما قيلَ مستثقلّةٌ للنصح نافرةٌ عن أهلهِ، وإِنِّي لكم أنتم يا صحبي إنكار المشهور المذكور في تلك المقالة استطرادًا ضروريًا، أفلا نفطن أنّ غيرنا في عصرنا أساتذة ونحن لهم تلامذة معرفةً وإلفةً وإقدامًا وغيرةً؟ فإن أبيتُم إلاَّ المكابرة فهاكم الذكرى إن كنتم تذَّكرون.

أما قصورنا في المعرفة فهو (١) في اقتصارنا على العلوم اللغويّة والمعارف الدينيّة. (٢) في نقص طرق التحصيل.

أمّا الأوّل فهو أنّ ليس عندنا لغير النحو ونحوهِ من الفنون سوق، فيصرف الطالبُ منّا السنين في التصريف، ويقضي العمر قاضيًا بين زيد وعمرو يطوي بطون

(*) المقتطف، ١٨٧٩، مج٤، ج١، ص ٢٠٤ – ٢٠٦.

الأسفار استقصاء المذاهب الشاردة والأحكام الباردة، فلا بدع أن يعتلَّ في تلك التعليلات مزاجهُ، ويضل رشدهُ في هاتيك التضليلات، فيعز علاجهُ حتى إذا جدّ دمه وبرد نال نعت النحوي المعلوم. وإن قيل: إنّ فينا غير هذا البيانيّ والمنطقيّ والفقيه والمحدّث والشاعر إلى الآخر وأكثرهم خدمة العلم للدين. قلت: العلمُ علمان علمُ الأبدان وعلمُ الأديان، فليس بالثاني غنًى عن الأول ضرورة، إنّ هذا ضروري لعمران البلاد وحياة العباد في وجودهم وفلاحتهم وصناعتهم وتجارتهم. وإن قيل: إنما المراد بعلم الأبدان هذا الطبّ، أجيب: إذا كان الطبّ ضروريًا لحفظ الحياة من جهة فالفلاحة والصناعة والتجارة أسبابٌ ضرورية لها من أخرى قد خلت هذه تحت الأوّل وجاز الإطلاق. وما اللّغة إن تبنَّاها إلاَّ واسطة الفهم، والتعبير قد يستوي فيها الوحشيّ والمتمدّن، وقد وجدت عند الأول قبل قوانينها عند الثاني. فالعربُ في الجاهلية تكلّموا بفصيح العربية على بداوتهم، ونظموا بديه القريض على همجيّتهم، فإذا لم يكن لنا غير علم اللّغة ساويناهم في الجاهلية إلاَّ أنَّا نحصّل بالتكليف ما حصل لهم بالطبع. على أنّ من رام التوغّل في اللّغة فيشترط فيه أن يكون لردّ ضائع أو استخراج كنز جديد لا كمن قضى ٣٠ عامًا في تأليف كتاب في المضاف والمضاف إليه. فهذه العلوم وحدها لا تغنينا في جيلنا فتيلًا ولا نباع بها شروى نقير فهذا عصر العلوم الطبيعيّة والرياضيّة أسس الصناعة والزراعة والتجارة والاكتشافات. فما يمنعنا يا أبناء الشرق اتّخاذ هذه الفنون اليوم من الغربيين، وقد أخذوها منّا في القِدم؟ ولمَ لا نقتفي آثار العباسيين والأندلسيين؟

ندرس لغات الغرب ونترجم منها العلوم النافعة والمعارف الجليلة، فهلّا ادّكرنا أسلافنا فلاسفة دهرهم وقهارمة العلم كابن رشد والغزالي وابن سينا وغيرهم الجم الغفير؟ وإن كان الأوربيون قد استضافوا في قرونهم المظلمة بأنوار معارف العرب حين كان شبانهم يتناطرون إلى الأندلس للعلم من كلّ فجّ عميق؛ فلمَ نستنكف نحن استرداد بضاعتنا رابحةً فنشيد لطلاّب معارفهم المدارس ونستجلب لها إذا لزم من معلّميهم الراسخين كما فعل الخلفاء في بغداد وتفعل دولتنا العلية في مدارسها الخاصّة؟ وكيف نقيم على التعصّب ونحن نفخر بقولنا الحكمة ضالَّة المؤمن يأخذها حيث يجدها؟ ولا تحسبوا في الكلام بدعة أو فضولًا فكثيرون من جهابذة أمّتنا، كالوزير خير الدين باشا، ينادون هذا النداء مستندين إلى حجج الشريعة وأدلّة العقل. فقد نقل هذا الوزير السامي المقام في مقدّمة أقوم المسالك «أنهُ لما أشار سلمان الفارسي (ﷺ) على رسول الله (ﷺ) بأنّ عادة الفرس أن يطوقوا مدنهم بخندق حين يحاصرهم العدو اتّقاء من هجومه عليهم، أخذ رسول الله (ﷺ) برأيه فحفر خندقًا للمدينة في غزوة الأحزاب عمل فيهِ بنفسهِ ترغيبًا للمسلمين. وقد قال سيدنا عليّ كرّم الله وجهه: لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال».

أمّا قصور وسيلة اتّخاذ العلم في مدينتنا فهو أنّا غالبًا لا نأخذه في مدارس قانونيّة اقتضاء الترتيب في كلّ أمر وشأن المتمدنين في كلّ جيل، فعندنا من طلبة العلم ٧٠٠ (برواية صاحب الرّوضة) يقصد كلٌّ أستاذهُ في دارهِ أو معبدِهِ متأبّط القِمَطر يبذل ماء الوجه في السؤال. فلو شيدت المدارس المتوفّرة فيها أسباب

الترتيب وإحكام النظام، وتشكّلت فيها الجمعيّات على ما في بيروت وغيرها للمحاورات العلميّة والخِطَب الأدبيّة يُدعى إليها القوم ترغيبًا في طلب العلم لازداد بها عدد الدارسين، واتّسع نطاق المعارف عند طلّابها لما يترتب على النظام من النجاح وتبادل الأفكار من الفوائد. فإن فعلتم يا أهيلي أصبحت شامُنا عمّا قليل تضارع أو تفوق غيرها في سوريّة لما عُهد فيكم من الاستعداد وشُهد لكم بفرط الذّكاء وعظمة النجابة، ولسنا نخصُّ في ذلك الذكور، فتعليمُ الإناث ما دمنَ هنّ المربيّات أهمُّ، وللأنثى في التهذيب والتهذيب مثلُ حظّ الذكرين، فنقيصتنا في إهمالهنَّ العلوم من أكبر النقائص على ما تقول جريدة سورية في هذه الأيام.

وأما الشائبة في ألفتنا فهي إنَّا لا نميل في الغالب لغير الملاهي في الاجتماع، ولا نلتقي إلاَّ لصرف العمر في باطل الكلام وسفَه الحديث، فإذا لقي المرء منّا صاحبة بنى لهُ على التسليم مقامة، وعلى التحيّة مقالة، وإذا ما التأم النادي بالجلّاس دار بينهم حديث الكاس والمطاعم والمطارف لاسيما القطائف والكنائف، يتداولون في كمالات هذه المرذلة ونقائص تلك المأدبة، وما خرج عن ذلك فهو الوقيعة والنميمة والقذف. أفهذا يا قومي بدل الجمعيّات العلميّة والجلسات المفيدة الوطنيّة، كلاّ فلا رقَّة حديثكم ولا انخفاض جناحكم ولا لطف أنسكم تكمل تلك النقيصة إلاّ أن تزيدها نقصانًا.

وأمّا في غيرتنا على مصلحة الوطن وإعلاء شأنِه فمعظم الملام على كبرائنا ووجهائنا وأغنيائنا، فهم من الرعيّة المسؤولون أولًا على إصلاحِه لما لهم من نفوذ

الكلمة وسعة الثراء. فلو أنّ لهم ما عليهم من المحبّة لبني جلدتهم لهذَّبوهم في كلّ فنّ، وثقّفوهم في كلّ معرفة، وأغنوهم في كلّ مادّة وما يغنون إلا أنفسهم. ولو أنّهم أصغوا إلى مشورة مدحتنا الهمام وتعاونوا في درء المفاسد وجلب المحامد وتكاثفوا على نشر المعارف وتعميم المبادئ النافعة بين الخاصَّة والعامَّة لرأينا اليوم لولداننا وفتياتنا ليس عشرةً بل مئة من المكاتب المنظمة ولما رأيت حتى الساعة ديارنا تكتنفها الكنف والأقذار. ولكنّ الأكثرين منهم وا أسفي يؤثرون مصلحة الذّات لاهين في هواهم يبتغون عرض الحياة الدنيا، فهمهم توسيع المزارع وإقامة القصور ، يتخذون عباد الله خولًا وأموالهم دولًا، ولا تغرُرك من أحدهم السكينة والتديُّن وقد نصب إشراكهُ لاصطياد الدنيا وأكل الأموال والودائع والأمانات والأرامل واليتامى، فهو كما قال الشاعر:

ذئـــبٌ تـــراهُ مـــصلّيًا فـــإذا مـــررتَ بـــهِ ركـــعْ
يـــدعو وجـــلُّ دعائـــهِ مـــا للفريـــسة لا تقـــعْ
عجّـــل بهـــا يـــا ذا العـــلا إنّ الفـــؤاد قـــد انـــصدعْ

فيا ليتهم كانوا يرعوون. هذا ما جال في البال وألجأت إليهِ الحال دفعًا لريبة قومٍ دمشقيين أوجسوها من مقالة الدكتور في أخلاقهم، وقد كان الحقيق بنا اتّخاذها موعظةً لخمولنا وذهولنا تحملنا على النشاط من حطَّة الخسف والذلَّة إلى مقام المجد والعزَّة بالجدّ والإقدام والاتّحاد بالحكمة والسّلام.

توما رَيْت وإسعاد المجرمين(*)

سبقت منا الإشارة في مقالة (سابقة) إلى عزمنا على إلحاقها بتتمتها (إسعاد المجرمين). وقد انصرف الهمُّ مذ ذلك الحين إلى مسائل أخرى لم تكن في الباب حتى وقع إلينا لأيامٍ قليلة كلامٌ من أحد الألبّاء الأكارم في حديثٍ عن منافع التاريخ قال فيه: «إنَّ أشدَّ ما أرى بلادنا في حاجةٍ إليه اليوم من أبواب التاريخ هو تراجم مشاهير الأرض الذين قاموا في مختلف البلدان فرفعوا منار الإنسانية في كشف حقيقةٍ أو إصلاح حال» فأنهض هذا القول همّتنا، ونبّهنا إلى إنجاز ما وعدنا بهِ في تلك المقالة آسفين على الإمهال، وقلنا هو خيرٌ على كلّ حال من الإهمال:

مهما يكن من أمر النجاح في إصلاح حال سكان السجون وهم وراءَ تلك الأسوار فلا يزالون في حاجةٍ إلى ذرائع توصلهم بما انقطع من ثقة الناس بهم بعد قضاء أيام العقاب، نعم ينطلق السّجين وينطلق معهُ الأمل محتدمًا في النشاط متشوّقًا إلى العمل، ولكنهُ متى شاهد الوجوه منقبضة منهُ معرضةً عنه، والبوليس واقفٌ لهُ بالمرصاد يحذّر القوم من أمرهِ وينذرهم بشرِّهِ فأَحرِ بتلك الحال أن تعيدَه إلى مواقف اليأس.

كان في مقدّمة الذين نبهتهم الأقدار إلى هذا البؤس الشديد ووطنوا النفس على

(*) المقتطف، ١٩٠٢، مج٢٧، ج٧، ص٦٣٥ – ٦٤٠.

دفعهِ وتلافيهِ توما رَيْت رجل قام في أوائل القرن المنصرم من صنَّاع مانشستر المساكين، واندفع في ذلك المسعى الجليل اندفاعًا يعزُّ فيهِ المثيل كما سترى.

لم يكن هذا الرّجل من ذوي الخطط والمراتب، ولا من أهل الوجاهة في هيئة الاجتماع أو من أرباب الثروة فتبلغهُ المرام، إنما كانت سعتهُ في قلبٍ يسع بلايا السجين المسكين وصدرٍ رحب بكلّ ذليلٍ. وما نشأ من عشاق الصحف والأسفار ولا أَلِفَ معاهد العلم أو وقف في مشاهد العرفان مما يدلُّك على أنّ مجرّد حشو الدماغ بقضايا معدودة من العلوم لا تكفل للدارس ترقي نفسهِ مراقي الكمالات الإنسانيّة، إنّما رضع من أمهِ لبان الصلاح والإحسان غذيت بهِ نفسهُ فبلغت طورها من القوّة والنّماء.

إلاّ أنهُ بعد وفاة والدتهِ الصالحة تُرك صبيًّا وحيدًا، فأُلقي إلى أيدي الزّمان أُلعوبةَ تصرفهُ حدثانُه كالكرة أمام الصولجان حتى ذاق منها الحلوَ والمرّ. ولمّا لقي من عشرائهِ الصنَّاع ما يعهد فيهم من أحوال السفالة والشرّ لم تعد نفسهُ تطيق تلك الموبقات، فتنبَّه ما كمن فيها من بذار تلك التربية الصالحة القديمة، حتى هاجت في صدرهِ هوائج النخوة وشرف الذات، فتنكَّبَ عن مسالك أولئك الرفاق وعدل إلى لقاء أهل الأدب والصّلاح.

ولمّا بلغَ أشدَّه دخل صانعًا في أحد مسابك مانشستر بأجرة خمسة شلينات في الأسبوع، ولمّا كان من شبان النبات والنزاهة والإقدام أبت نفسهُ إلاَّ الجدّ ومصارعة الأيّام حتى أصبح في ذلك المسبك المقدم المعوَّل عليهِ.

وأول غرض مالت نفسهُ النبيلة إليهِ إسعاد أهل الجرائم والذنوب ومعاونتهم على وجود العمل الشريف وذلك من أبعد المطامع منالًا وأقربها إلى المستحيل وأشدُّ ما يحمل النفس على اليأس والقنوط. فإنّ المجرم حين انتهاء مدّة سجنهِ لا يتأتّى لهُ العود إلى محلهِ السابق إلاَّ في النادر وذلك لما قام في نفوس مستخدميهِ من اعتقاد رسوخ الشرِّ فيهِ فضلًا عمَّا زادهُ السجن من رذائلهِ، ولكن الحازم الهمام لا يزيدهُ بعد المطَّلب إلاَّ إقدامًا بدل الإحجام.

وكانت فاتحة أعمالهِ الخيريَّة في إسعاد المجرمين أن أتى المسبك ذات يوم رجل كان قد أخذ ببعض الجرائم، ولمّا سُئِل رَيْت عنهُ لم يكن يعلم من أمرهِ شيئًا إلاَّ أنهُ في خلال ساعات العمل استطلعَ طلعَ حالهِ فتحقَّق الشبهة فيه. غير أنّ الرجل أبدى في حكاية حالهِ أصدق علائم الندامة والأسف، ووعد بدموع الحزن ألاَّ يعودَ إلى سابق شرِّهِ وأن يمحوَ ما لطَّخ بهِ من آثار الخزي والعار. فنقلَ رَيْت الواقع إلى أرباب المسبك ووضع عشرين جنيهًا ضمانةً على دوام استقامتِهِ في الاستقبال فقرَّروا تثبيتهُ في المعمل.

غير أنهُ لمّا عُدَّ العمّال غداة ذلك اليوم لم يكن ذلك الشقيُّ المسكين بينهم وذلك لأنهُ لم يكن قد بلغَه قرارَ إرجاعهِ إلى المعمل، فأُرسل إلى مبيتهِ رسولٌ فلم يجدهُ إذ كان قد حزم أمتعتهُ وراح يهيم على وجهه في عرض الأرض. وبعد أن علم رَيْت بوجهة انطلاقِه انطلق يعدو وراءَهُ، فأدركهُ على أمد عدّة أميال من مانشستر وشاهدَه جالسًا على قارعة الطريق منكسر القلب كئيب النفس كاسف البال منقطع الأمل

من دنياهُ، فرفعهُ بيمينِهِ وبشَّره بقرار إرجاعه إلى عملِه، فانتعشت قواهُ وعاش رجاؤهُ، فعادا معًا ودخلا إلى المعمل وقد برهنت الأيام على صدق وعدهِ وخلوص توبتهِ وندامتهِ.

فهذه الحادثة قوَّت آمال رَيْت وشدَّدت عزائمهُ في مسعاهُ الكريم وأيدت لهُ ما تفعل المؤاساة والانعطاف في انتشال أمثال هذا المجرم من أعماق التعاسة والذل إلى ساحة العمل وبحبوحة الأمل. وكان يقول: إنّ من الخطأ الفاضح قطع الأمل من ارتداد هؤلاء البائسين التعساء. وأنّ الأخلق بكلِّ من يدّعي الصلاح أن يمدَّ إليهم يمين المعونة والإسعاد، ويأخذهم بأسباب الشفقة والحنان حتى يعودوا إلى ميدان النشاط والراحة والاطمئنان. وما زالت هذه المسائل تحوم على خاطرِهِ وتجول في صدرهِ حتى صارت غرض حياتِهِ الأقصى.

وكان ساكنًا في جوار أحد السجون، فكان يطلب أولًا الدخول إلى المجرمين فلم يكن ينال إلاَّ الصدَّ والردَّ، وبعد أن لبث على ذلك زمنًا غير يسير بلغهُ اتّفاقًا أن والد أحد زملائهِ في المسبك بوَّاب في السجن، فتوسّط لهُ في إدراك مبتغاهُ، وأُذن لهُ في ملازمة الحضور إلى إحدى الحفلات الدينيّة أيام الأحاد. على أنّه لم يكن يُؤذنُ لهُ إلى تلك الساعة في أن ينفرد بأحد المساجين، ولكنهُ صبر على مضض الانتظار صبر الكرام.

وبينما كان عائدًا من السجن يومًا من أيام الآحاد استوقفهُ الخادم الدينيُّ مدير ذلك الاجتماع وطلب منهُ عملًا لأحد السجناء الذين انتهت مدة عقابهم وهم في

مزيد الرغبة في العمل، فأجابهُ ريت بالإيجاب ووعدهُ ببذل المجهود في ما سأل ونال عملًا لذلك البائس الذليل.

فأباح لهُ الحاكم حينئذٍ الدخول إلى السجون ومحادثة أيٍّ شاء من المجرمين، فأخذ ريت يبذل لهم النصح والإرشاد ويراسل أهاليهم في منازلهم مبديًّا أدلَّة الصداقة والإحسان. وكان يترقَّب المتّهمين يوم انطلاقهم ويتعمَّد ملاقاتهم ويعود بهم إلى منازلهم ويردُّهم إلى عيالهم ويحسن إليهم بما استطاع من أجرتهِ اليوميَّة، ثم يسعى جهدهُ في أن يقودهم إلى أبواب العمل وسبل الرزق الحلال.

ولم تكن مساعيهِ تخيب في غالب الأمر لأنّهُ اكتسب ثقة أصحاب الأعمال بأمانتهِ وصدقهِ وحكمتهِ، فكانوا يلبُّون طلبهُ باستخدام من يشاء من المجرمين المرتدّين حتى أنهُ كان يبذل الضمانات المالية المجموعة من أجورهِ الأسبوعيّة حين الاقتضاء.

ولبث بضعة أعوام على هذا المسعى وهو لا يفارق مسبكهُ عاملًا مجتهدًا بما استطاع من الهدوء وتواضع النفس يتحامى الاشتهار والافتخار حتى وجد أعمالًا لمئات من أولئك المجرمين البائسين.

حكى أصدقاؤه عنهُ أنّ أحد المجرمين بعد أن قضى مدّة عقابهِ في الأشغال الشاقَّة أُطلق سراحهُ وأصحبهُ أحد القسوس برقيم توصية وأعيد إلى مانشستر فلم يُصب أولًا لهُ عملًا سوى الكناسة في الطريق ولكنّ رَيت سعى فرقّاهُ إلى عمل مصلح في الطريق، وبعد أن أبدى من حسن المسلك ما أبدى أدخلهُ بعض مدارس

الليل وغيرها فأظهر من مناقب المروءة والرغبة في التعلّم والتحصيل ما أهلَّهُ إلى رتبة معلّم حتى نال لدى رئيس المدرسة أحسن الحظوى والالتفات وما زال يرقى بالجدّ والإقدام حتى سيم قسيسًا.

وبعد أن قام ريت على مثل هذه المفاخر والمآثر الكريمة أعوامًا مالت إليه أبصار ذوي المكانات العليا من الحكام ودارَ ذكرهُ في المجالس والتقريرات الرسميّة، ومما جاءَ عنهُ لأحدهم في تقرير سنوي عن (حال المجرمين) قولهُ: «... ولكي أظهر الحدَّ الذي بلغهُ إحسان هذا الرجل الصالح المسكين والنجاح التي تكلَّلت بهِ مساعيهِ أقرر أنّهُ لم ينقص متوسط من أصلحهم من المجرمين بفضلهِ وإحسانهِ عن ستة وتسعين في المئة، ومما يثير الخاطر بهجة وحبورًا أن نرى تلك الثقة التي فاز بها هذا الإنسان من قبل المجرمين الأشقياء ولم تكن إلاّ جزاء أسلوبهِ الصالح الساذج الأبويّ العاري عن كلّ ما يشوبُه من شوائب العجب والمنّ والافتخار».

ولم تقصرَ مساعيهِ على وجود الأعمال لأولئك الأذلاَّء المساكين، بل إنهُ كان يقرض من لم يصب عملًا ما نالت يدهُ من المال، أو يسعى في اكتتاب سرّي بين بعض أصدقائهِ مساعدة لبعضهم على النزوح وطلب الأرزاق، فبلغ عدد من أنجدهم في هذا السبيل نحو الألف، حتى إنّ بعض هؤلاء المجرمين كانوا يبذلون لهُ المساعدة في أعمالهِ الخيرية إمّا بتهيئة أعمالٍ لإخوانهم أو باكتتاب مالي على ما أسلفنا ذكرهُ. وقد كان يردّ لهُ من بعض أولئك المجرمين النازحين مساعدات مصحوبة برسائل الشكر والحبّ، من ذلك رسالة وجيزة وردتهُ من أحدهم يقول فيها: إنّ ما

أحرزتهُ من مطالب النجاح لم يكن أساسهُ إلاَّ حبّك الوالدي وعونك الذي لن تمحيَ آثارهُ ولن ينسى تذكارهُ. إلى آخر ما هناك من عبارات الشكر والوداد.

والذي يقضي على القارئ بالعجب العجاب من أمر هذا المحسن العظيم أنّهُ لم يكن ينقطع عن عملهِ اليومي مع كلّ هذه الأعمال العظيمة الشاغلة، فكان ينهض إلى مسبكهِ الساعة ٥ صباحًا ولا يفارقهُ قبل الساعة ٦ ليلًا، حتّى لم يكن يبقى لهُ لأجل القيام بتلك الأعمال الخيرية سوى ما بقي من ساعات مسائهِ وأيام العطلة والآحاد، فكان يُشاهَد في السجون والملاجئ يعزي المسجونين ويؤاسي المجرمين، وبقي على عملِه هذا المبرور إلى الثالثة والستين من العمر، حين مالت شمسُ حياتهِ إلى المغيب وهو لم يذخر شيئًا من المال وما زاد عن قوتهِ اليومي كان ينفقهُ في وجوه الخير على ما مرَّ في سياق الكلام، حتّى كان في كثير من الأيام يُلمُّ بهِ العوز والضيق إذ كان من مبدئه ألّا يدّخرَ فلسًا إلى غده إمساكًا عن معوز في يومهِ.

ومن غرائب حالهِ أنهُ لما علمت الحكومة الإنكليزية قيمة خدمهِ هذه وفضلهِ على البلاد عرضت عليهِ رتبة مفتش على السجون براتب ٨٠٠ جنيه سنويًّا، فرفض المنصب والتقدمة جميعًا قائلًا: «إذا صرتُ مأمورًا للحكومة أخشى أن تقعد بي الهمَّة عن تلك المهمَّة فلا أعود مساعد المجرمين وخليل البائسين».

على أنّ أهل مانشستر حين رأَوا منهُ هذه الشهامة النادرة المثال نهضت بهم عواطف الشكر وعينوا له سنويًا ١٨٢ جنيهًا جمعوها بالاشتراك، ولم يكن المبلغ إلاَّ عشر العشر مما اقتصدتهُ بمساعيهِ خزينة البلاد. وكان ممّن عرف لهُ قدر هذا الجليل

والصنع الجميل أحد المصوّرين فأهدى إليهِ رسمًا كتب عليهِ (السامري الصالح)، وقد نصب هذا الرسم في منتدى مانشستر العام على أنّ ريت لم يقف عند هذا الحدّ، بل ازداد همة وإقدامًا فأخذ يطوف البلاد نظير هَوَرد يزور السجون ويتفقد الملاجئ ومدارس الفقراء الصناعيّة وسائر الأمكنة المتعلّقة بمقاصدهِ الخيرية. وكان من أجلّ رغائبه أن يهذّب أولاد المساكين ويربيهم على العمل الشريف فيردّ عنهم آفات البطالة وما تجرهُ من البلايا والويلات فيقلل بذلك عدد المجرمين. فقامت بمساعيهِ مدارس الفقراء ولم يألُ جهدًا حتّى جعل التعليم فيها إلزاميًّا ، يقين أنّ هذا الإلزام من أفعل الذرائع في تخفيف الجرائم وتقليل الفقر.

وما عدا هذه المدارس فقد أنشأ مدارس صناعيّة وبنوكًا لاقتصاد المجرمين ومعامل خيرية لتشغيلهم. وعلى الجملة فحيثما رأت عينهُ وجهًا للخير سعت قدمهُ نحوهُ ومدَّت إليه يدهُ. ولم تفتر همّتهُ حتّى بلغ الخامسة والثمانين فبلغ الضعف منهُ غاية الحدّ وقضى في الرابع عشر من إبريل (نيسان) سنة ١٨٧٥.

هذا ولا نعلم ما يقول أهل الأنانيّة في مثل هذا البطل الغيريّ الكريم والمحسن الخيريّ العظيم، ولا ندري أي ناموس خرق في شرعهم غير ناموس (الأنانية) هادم العمران وعار الإنسانية فلم يبقَ إلاَّ أن يقولوا لعلّهُ أنانيٌّ أيضًا رام سدَّ عاطفة طمعًا بمدح الضمير. قلنا إن كان لمثل هذه الأنانيّة هذا الأثر في النفع العام فهي خيرٌ من أنانيّة محصورة في الذات، وليس لها من أثرٍ غير إماتة العواطف والإنسانيّة وتوبيخ الضمير

متري قندلفت

الاستبداد الصحّيّ(*)

لم يكن في هذه الأيام الأخيرة أدور على الألسنة والأقلام من لفظ (الاستبداد)، ولا أجول في الأحلام من معانيه الوبيلة لما فيه من آثار الفساد في البلاد والعباد، وحقّ أن يبقى حديثهُ ملء الأفواه وموضوعهُ عرض الصحف والأسفار وعنوان الخطب والمنابر، حتى تتمّلس منهُ الأفكار وينقش على الخواطر، وحتّى يرضع بغضه أطفال المهاد ويشب على عدائه أبناء الجيل، فتنكس أعلامه في الأغوار والأنجاد ولا تخلد أخباره إلا عبرة وذكرى في كلّ جماعة، فتغلب كلمة العدل بين الأنام إلى أن تقوم الساعة.

غير أنّ هناك نوعًا من الاستبداد لا يتعدّى المستبدّ فيه إلّا على نفسه وإن قرب عليه حلول رمسه، إذ لا حقّ لفردٍ على آخر في ارتكابه، ولا شرع فيه يقف على أبوابه، فلا قامع له إلّا العلم السديد، ولا دافع فيه غير الحزم الرشيد والعزم الشديد، ذلك هو الاستبداد الصحيّ، وهو موضوع هذه المقالة.

من أعجب ما يذكر من أحوال ابن آدم أنّه مع كونه فطر ولوعًا بالحياة حريصًا على حب البقاء، وخلق جزوعًا هلوعًا ينخلع قلبه لأقلّ مفاجئ من

(*) نشرت في مجلة النعمة في الجزءين (١٤، ١٥)، من السنة الأولى ١٩٠٩، ج ١٤، ص٤٤٣ – ٤٤٥، وج ١٥، ص ٤٨١ – ٤٨٥.

الحدثان، ويطير فؤاده شعاعًا لذكر المرض وخيال الحمام – لا يبرح معرضًا عن قوانين الصحة الضامنة لطيب العيش ولذة الحياة، حتّى يبلغَ ببعضهم هذا الإهمال إلى حدّ أنّهم يجازفون بمادّة البقاء، ويستسلمون إلى غوائل الأدواء، كأنّهم يفهمون الأوامر نواهي، ويوصون بالإغفال في مقام الحرص والاحتفاظ.

والناس في التعدّي على الصحّة في غالب الأمر على السواء، لا فرق بين الكبير والصغير، ولا بين الغني والفقير، ولا بين الرجال والنساء، فإنّك تكاد ترى الجرائم الصحية عقارب سامّة تدبّ إلى قصور الملوك، كما تقطن كوخ الصعلوك، فتتسلل تحت الرياش الباهر الجمال المقدر ببدر المال، وتتعشّق حلل اللسان وتعلق أبدان كرام الشبان وأبطال الشجعان، بل هي قد لا تقعد عن مناصبة العالم النحرير والجهبذ الخطير، على ما وعى دماغه من شوارد الفنون، وحوى صدره من موسوعات العلم والعرفان.

أجل إنّ الصحّة عند البشر أجمعين أثمن كنوز الدنيا وأغلى نفائسها وأكرم جواهرها، حتّى يفتديها فاقدها بمجموع ما ادخر من القنى وما حشد من الحطام ومقوّمات الغنى، لكنّك إذا تفحّصت أحواله في طرق معيشته وعاداته في المطعم والمشرب والمنام والمقام والملبس والمأوى إلى آخر ما هنالك من مقوّمات الحياة تراه عدوًا لدودًا لنفسه، بل جانيًا أثيمًا عليها حتّى إذا حقّ له أن يقيم الأرض ويقعدها على خدش إصابه من قبل أخيه لأمه وأبيه، فأيّ حقّ يلزمه ترى إذا تقاضته حقوقها عليه بما تجني يداه عداد أنفاسه من جالبات سقامه ومدنيات حِمامه.

لا تعارضني هنا بتوفّر الأذكياء المهذّبين والألباء المدرّبين الدارسين لقوانين الصحة المحيطين بأصولها وفروعها من الصحف والأسفار الناشئين عليها منذ نعومة الأظفار، ولا تعترضني بأكياس على آخر زيّ من قالب وكيٍ من أهل المدنية الحديثة المتحدّين لأرباب التأنّق في الطعام والشراب، المتردين من الحلل بما يأخذ الأبصار، ففي أولئك الأطباء وهؤلاء الظرفاء والألباء من يصفُّون في حفظ الصحّة عن البعوضة ويبلعون الجمل سعيًا وراء الشهوات وهم من خارج قبور مكلسة وفي الداخل عظام أموات، فكم من طبيب عرفتهُ وهو عبد لدخان يخبث به الطيب وينفث السمّ. وفيلسوف أسير للكاس والطاس بل الدنّ، وشاعر لبيب يأوي مغاير الجنّ بل يتسرى من كن إلى كن. وإن زدتني اعتراضًا زدتك بيانًا بأنّي كم من سيرة قرأتها لمشاهير من لاهوتيين أخيار ووعاظ أبرار راحوا ضحايا الاستبداد الصحيّ، إذ أسرفوا على أنفسهم مدًّا للبدن وجهدًا في العقل، فانصرمت حبال حياتهم في منتصف العمر بعد أن كانوا ينادون ليل نهار أنّ الطمع الجسديّ قتل للنفس، وأنّ الحياة لمجد الخالق وخدمة المخلوق. وكم من صالحةٍ تقيّة هجرت الأهل والوطن لتعليم جاهل وإرشاد ضال، فساقها إجهاد الذهن والبدن إلى القبر والكفن وهي غضّة قشيبة ثوب الشباب بعد أن دبّت في ضلوعها عقارب الداء الوبيل فعجل عليها الرحيل.

هذا وربّما وهمَ بعض سيداتنا العصريات أنّ خطابنا يوجّه إلى ضمائر الذكور فليس لهنَّ منهُ نصيب، فمن العدل أن نقول: إنّ حظهن من أمور الصحّة قد يكون

مثلَي حظ الرجل بلا جدال، فلم يغرب عنّا ونحن نخطّ هذه السطور أنّه إن كتب للرجل في قواعد الصحّة فصل يحقّ أن يكتب لهن فصول، فإنّ الأنثى وهي حاضنة الطفل ومستودع النسل إلى أن ينشأ جبارًا يقارع الأهوال ويصارع الرجال أحقّ أن تكون في قوّة الأبطال لوفاء وظائفها في أطوار الولادة والإرضاع وتنشئة المولود وإنماء قواه، فكلّ ذنب صحيّ تقترفه في دائرة هذه الواجبات المقدّسة جناية مضاعفة بحكم الشرع والطبع، فلتعلم قبل علم الرجل أنّ كثيرًا ممّا تعدّه من روائع العصر وبدائع التمدّن الحديث في طرق معيشتها ورفاه حالها قد يكون آفة مهلكة لا يشفع فيها ثوب يشوق ولا محسن يروق.

ومع أنّ الإنسان يشاهد في ما يحيط به من الجهات الأربع من نعم خالقه الجوَّاد الرحيم وربّ الحياة الكريم الرحيم، **كالهواء** الذي هو قوام الاشتعال ودعامة الحياة ومنعش الأبدان، **والماء** الذي هو أخو الغذاء ومطهر الأدران ومجدّد وجه الأرض على تقلّب الفصول والأزمان، **والنور** الذي هو ركن الأبصار وجالي بدائع الكمال وروائع الجمال – مع مشاهدته لهذه الآلاء كلّها ويقينه بأنّها إنّما خلقت ذرائع بقائه ومناجع حياته وهناته – فهو في غالب شؤونه يسيء استعمالها إفراطًا أو تفريطًا فتورده موارد الهلكة والعطب كأنّما هو يبحث عن حتفه بظلفه.

وما علّة ذلك كلّه في ما يرى المتبصّر إلّا زيغ الإنسان بالطبع عن مناهج السداد وميله الموروث إلى مهاوي الفساد حتّى تغلبه الحيوانيّة وتستعبده الأهواء السافلة، ويفتنهُ العارض الزائل من اللذات، فيشتدّ به عندئذٍ جماح النفس الأمارة

بالسوء عن مطاوعة القانون فلا تعود تقف به دواعي الشهوانيّة عند حدّ ولا يرضيه معيار أو مكيال.

فهذا الطعام الذي أعدّه له باريه وسيلة لتجديد قواه العقلية والجسدانيّة حرصًا على البقاء، تستهوي لذاذاته الفائتة، فيقوى بطره ونهمتهُ، ويندفع على التهام ما اشتهى مما طبخ وطهى، وقلا وغلا، وشوى وسلى، وطحن ودق وعجن ورق وقطَّر وحلَّى وبيَّت وخلَّى مما ألّف وركّب وصنّف عدا الذي عفا عنهُ وعفّ، وغير الذي يعرض عليه بعضه ليعرف حلوه وحمضه، إلى آخر ما تجر هذه القافية نسأل منها العافية، لكن هل ترجى العافية لإنسان يعيش كالثور والكديش؟ بل كيف يساق له الدّعاء ويحقّ عليه البكاء إذا انتهت حياتهُ في الآخر على ما يقول الشاعر:

كـم أكلـةٍ دخلـت يومًـا حـشا شرهٍ فأخرجـت روحـه حـالًا مـن الجـسد

وهذا الهواء الذي خلق على تركيب عجيب من عناصر متضادة لتطهير الدّم وتجديد القوى وإنعاش الكليل وبرد العليل وشرح الصدور وجلاء الغموم، كم يفسده الإنسان بأقذاره وسمومه وهو يسدّ في وجهه المنافذ والأبواب، ويقيم بينه وبين أنفاس السماء ألف حجاب في ازدحام الأقدام وانضمام الأجسام في القعود والمنام.

وهذا هو الماء مجدّد الطبيعة ومحيي الموات من حيوان ونبات إنّما ينبجس زلالًا صافيًا من الينبوع مشرقًا كاللؤلؤ نقيًّا كخالص اللّجين شفافًا كالدّموع، كم يصبح بجهل الإنسان قرارة الأدناس والأرجاس ومجتمع الأوباء والأدواء بالأنواع

والأجناس. كذا يقال في ضلال الإنسان وغيّهِ وتفانيه في سواحر ملبسه وزيّه، فلم يكفّه ما أفسده من نعم باريه في أمر الطعام والشراب والهواء والماء، فقلب الموضوع وعكس المطبوع بل تطرقت جنايته على نفسه في أمر الكساء الذي إنّما قصد به صون الحياة وحفظ الصحّة من الآفات الجوية وغيرها مع الزينة الحقيقيّة التي لا تتعدّى حدود اللّياقة ولا تجاوز الأحكام الطبيعية. ولكن البشر أبناء الضلال أعماهم فرط حبّ الذّات والتّهافت على التباهي والرياء من وجه التقليد في الأزياء، فأصبح الزيّ معبودًا لهم نستغفر الله، وأضحى قبلة الأماني وكعبة المساعي، حتّى نبذوا فيه المبادئ الصحيّة ظهريًا، فغدت لديهم نسيًا منسيّا، فما هذه الأطواق إلّا أغلال الأعناق، وما وراء تلك الصدور المبيضة المكوية سوى أدواء مغيضة في أحشاء مشوية، وما هاتيك المشدات إلا للهلاك معدّات، فكم من فؤاد بات مفؤودًا بها شدّ وثاقهُ وضاق خناقه، وكم وردٍ لفقر الدّم زالت حمرتهُ وخمدت جمرتهُ بعد أن كان بهجة العيون والقلوب ومزيل الغموم والكروب، وكم من غصنٍ أمالتهُ أهواء الأزياء فذوى وإلى التراب هوى، وكم من قدمٍ ضاقت بتضييقها الهمم وعجلت العرج والهرمَ إلى آخر ما أثبتهُ الأطباء من غوائل الأزياء، وما فتئوا ينادون بأضراره حتّى ضجَّ بندائهم الفضاء وعجّت المنابر وجفّت المحابر.

وأمّا من حيث إسراف المرء على نفسهِ في إجهاد العمل فنجتزئ هنا منهُ بالإشارة وهي: إنّ العمل إنّما تعين بحكم الحكيم من نصيب الإنسان على الأرض وسيلة لتحصيل أسباب البقاء على شرط التزام خطّة الشرائع الطبيعية والأدبية،

ولكنك تراه ولا سيما مع ارتقاء العمران أصبح أسير الطمع والجشع في دنياه، لا ينوي في العمل على الغالب إلا مسابقة الأقران والفوز في كل ميدان، وأمرٌّ ما يذكر في ذلك أنّ شرّ المعتدين على الصحّة من طبقات الناس هم من أهل الغنى البالغ وأُولي السعة والثراء، فما كفاهم أن خرقوا حدود الشريعة والطبيعة في حبسهِ عن البذل في وجوه الخير أو التعاون الاجتماعي، إذ يهيم الفرد منهم في أودية السرف والترف، ومن حوله ونُصب عينيهِ ألوف من أجواف بني جلدته مفتوحة إلى الهواء، والأفواه تصرخ إلى ربّ السماء، بل بلغ من إسرافهم في قوى العقول والأبدان ألّا يفرّقوا بين اللّيل والنهار كأنّهم قدّوا من حديد ولا يقتضي لأبدانهم راحة ولا تجديد.

ولذلك فمهما يكن من فعل العلل والأسقام في الطبقات الدنيا من الخلق فقد لا يقلّ أثرها في الطبقات العليا من ذوي الأعمال وأرباب الأموال، فإذا ما تقصّيت أحوالهم داخل الصروح الباذخة والمصانع الشامخة والديار العامرة والرياض الزاهرة والدوائر التجارية وجدت آثار الاستبداد الصحي بادية على تلك الوجوه والأجسام والأيدي والأقدام تشكو ما تقاسيه الأكباد من تباريح الهموم ولواعج الاهتمام. ولا بدّ في عرض هذه الشكوى من أن نومض لمعة إلى المفرطين في الصحّة من طلّاب العلم وعشّاق الصحف والأسفار وندامى المحابر والأقلام، فكم عادت عليهم هذه المحابر مقابر وكانت أقلامهم لقلوبهم سهامًا، وإنَّا وإن كنّا نعرض في هذا الباب بهؤلاء الدرّاس من تلامذة المدارس إشفاقًا ونصحًا لَأحقّ أن نسدّد سهام الملام إلى رؤسائها ونظّارها طعنًا وجرحًا بعد الذي علموه من شرائع العلم في اعتماد

الاعتدال في أعمال العقول ورعاية قواعد الرّاحة والمراوحة في التدريس بين الجدّ والهزل والتشديد والإباحة، عدا ما أثبته الاختبار من أضرار ضيق غرف الدّرس والمنام، هذا ولولا خوف الإطالة في هذه المقالة لألمعنا إلى تعدّي الإنسان على صحته أيضًا في أمور المنام والقيام، وما يتعلق بمبادئ الرياضة والاستحمام (وموعدنا في ذلك كلّه إن أذن الله الأعداد الآتية)، وإنّما نقول كلمة واحدة في الختام وهو أنّ حفظ الصحة على التمام لا يحصل من دون الإحاطة بدرس مبادئه العلميّة المعبّر عنها بفن الهيجين المبني على علم التشريح والفيسولوجيا مما ينبغي لكلّ مدرسة عصريّة على التخصيص إدراجهُ في لائحة دروسها مع صدق العزيمة في تدريسهِ، وهو تعالى المسؤول أن يلهمنا الحرص على موارد الحياة السماويّة والأرضيّة لتقوم بخدمته وخدمة بني نوعنا أحسن قيام له المجد وله الحمد على الدوام.

م.ق

من هم رجال الغد(*)

ربما عجب القارئ لهذا السؤال فقال: أليس أولاد اليوم رجال الغد؟ إذا منَّ الله عليهم باجتياز سنّ الصبوة والشباب، أو لم تقرع أسماعنا أصوات الوعّاظ والأساتذة والوالدين منادين محرضين ناصحين أنّ الجلوس على مقاعد التحصيل والطلب والاغتذاء بلبان الأدب هم الذين تناط بهم الآمال فيصبحون رجال الاستقبال، فمن صفوفهم ستُشغل مناصب الدين والعلم والسياسة والرئاسة على اختلاف الرتب والدرجات وامتياز القوى والملكات، ومنهم سيقوم قادة الأفكار ورعاة الحقّ وأبطال الإصلاح، وبنفحاتهم سوف تتعطّر رياض المدارس، وبصفحاتهم ستزدان المكتبات وتعمر الأندية المجالس، وبطيب أثمارهم ستغدو المنازل جنات النعيم، وبصلاحهم ستبدو المساجد مقادس الإله الطاهر الرّحيم فتصير الأسواق مجامع الاستقامة والجد، والمدن محافل الإخاء والاتّحاد والوفاء، وبهم ستمسي البلاقع جنّات تجري من تحتها الأنهار، وحدائق تأتي بأينع الأثمار، وبهم سيأمن الخائف ويُؤدَّب الغائب ويعود النازح إلى البيت الذي درج منه والمهاجر إلى الوطن الذي يحنُّ إليهِ.

قلت: مهلًا يا أخا الصلاح والإصلاح، إنّي لا أنازعك في البديه من أنّ أولاد اليوم إذا كتب لهم البقاء أصبحوا في الغد رجالًا بالطبع، ولكن ما أريد مرَّ النظر فيه بميسور هذه

(*) النعمة، آذار ١٩٠٩، مج١، ج ١٩، ص٦٠٧، ٦١١.

السطور ليس هو البقاء الطبيعي، ولا النماء المعهود بالصور والقامات حتى يكون الأولاد رجالًا في الأعمار والأجسام، وإنّما أريد لفت الناظرين إلى أنّ ليس كلّ من ينشأ منّا في صورة الرجل يصلح أن يُعدَّ من رجال الغد، ولا كلّ من قضى الأعوام المدرسيّة وتنقّل في صفوفها وفاز بشهادتها يوم الاحتفال يكون هو رجل الغد بالقلب والفكر واليد، إنّي أريد برجال الغد على وجهِ الإيجاز:

أولًا- هم الذين ولدتهم أمّهات العلم والدين، فرضعوا من صدورهن حبَّ الخالق والمخلوق، واكتحلوا من الكدّ شهادًا فغرس في أعماق نفوسهم مبدأ التكافل الاجتماعي فجرى في عروقهم مجرى الدماء حتى يحيوا فيه ويموتوا عليه، فلا يرضون على صلاح مجموعهم كيف كان بوقت ولا مال. فكم من شاب خرج من معهد علميّ بعد أن قضى زهرة العُمر ولا يعلم للوطنية معنى أو يقيم للقومية وزنًا! فإنّما همّه الذات أو اللّذات، ولا يحفل بابن أمّه إن عاش أو مات، فنحن مع الذاهبين إلى أنّ مبادئ الأخلاق إذا لم ترضع من صدور الوالدات رضاعًا فليس للمدارس من أثر التربية إلاّ جلاءُ الصيقل، وما أسرع ما يذهب الصقل ضياعًا. فلتفخرنَ شموس الخدور إن طلعن منها أقمارًا، ولتعجب ذوات النقاب إن جلونَ من وراه أبصارًا وأزحنَ عن البصائر ستارًا.

ثانيًا– إن رجال الغد هم الذين أحاطوا وهم من على مقاعد الطلب بما يهم شأنه ويعم أثره من أنواع الفنون العصرية حتى إذا دخلوا معامع الحياة لحاقًا أو سباقًا كان لهم فيها الأقدام الراسخة حفظًا للبقاء ودفعًا للفناء فقد علم الكبير والصغير أن

الرتب لا تنال بالأشواق، والمعالي لا تدرك بفتح الأشداق، فلا يكفي الشاب نتفه من اللغات ولا قطفة من الرياضيات ولا عطفة على الطبيعيات ولا وقفة على أبواب الأدبيات شأن المئات من طلاّبنا لهذا العهد، بل على كل همام مقدام بالأصول من مجموع الفنون أن يتوفر على ما انفرد به ذوق من علم أو صناعة حتى يقف له العمر فيقتله درسًا ويقلبه بطنًا لظهر.

ثالثًا– إنّ رجال الغد هم من استعدّوا لعصرهم المقبل الخطير بما فيه من أماني وآمال ومخاوف وأهوال وعظائم وقائع وجلائل أعمال، فيقابلون كلّ حالة بما تقتضيه مع مواضي العزم وسوابغ الحزم وقواطع الدربة والحنكة والجلد والحكمة حتّى لا يهولهم هزّ السيوف وموج الكماة في الصفوف. فإن كانوا قد نسجوا هاتهِ الدروع وهم يدرسون واصطنعوا هذه القواضب أيام تحصيل المطالب فبشّرِ الغد إذًا برجاله وغبط المستقبل بأبطاله.

رابعًا– إنّ رجالنا في الغد على التخصيص هم الذين نشؤوا على مبدأ الاعتماد على الذات قبل أن يماط عنهم اللثام، أريد بذلك التربية الاستقلاليّة التي لا تعرف التواكل إلا سمًّا زعافًا لحياة الفرد مهما تكن أحواله في هذا الوجود، ومهما يكن مقامهُ في هيئة المجموع. فالرجل في عرف الرجال اليوم هو الذي لا يعرف بعد معبوده معتمدًا له سوى ما جاد عليه باريه من قوى العقل والبدن، فمُذ تفتّح عن زهره الأكمام يلج معترك الحياة على أحسن أهبة للكفاح والزحام لا يتّخذ في الواجب محجّة سوى التعويل على قواه بحول مولاه، فلا اتّكال على نسب، ولا استناد على حسب،

ولا وقوفًا على أبواب العظماء، ولا اعتمادًا على مكارم الكرماء، ولا تأميلًا من جاه أبيه، ولا رجاء من نفوذ أخيه حتّى يصحَّ أن يقال حقًّا فيه.

وإنّما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول في الدنيا على رجل

وإنّما أفردنا ميزة الرجولة هذه بالذكر تنويهًا بما لها من سمو المنزلة في الخصائص المقوّمة لمعنى الرجل الصحيح. فإنّ مبدأ الاعتماد على الذات اليوم قد أصبح قبلة أهل التربية والتهذيب، فأحلّوه المحلّ الأوّل من المبادئ الرافعة لشأن الأمم الممتازة بقوى رجالها علمًا وعملًا، فألّف أرباب النظر والتفكير منهم المؤلفات الساحرة حقائقها للألباب حتى صارت منهاجًا للمربين وسراجًا وهّاجًا للمهذّبين وأحسن ما يذكر من منقولاتها إلى العربية سرّ تقدم الإنكليز والتربية الاستقلالية.

هذا وإنَّا نسأل إله المعونة والإسعاد أن يأخذ بأيدي القوَّام على التربية والإرشاد إعداد الرجال لذلك الغد المجيد على أقوم منهج وأوضح سبيل سديد وهو تعالى وحده القدير وبالإجابة جدير.

م . ق

لمحـة نظـر(*)

في منافع تمدّن الغرب للشرق وأضراره

أشرقَ على ربوع الشرق ضياء من الغرب، فبهر الأبصار وأومض برق تبدّلَ فيه الليل والنهار ألا وهو التمدّن الحديث، يمتزج فيه الجوهر والعرض، ويتلازم معه الصحّة والمرض، وتختلط المنافع والأضرار، حتّى حارت بين الجانبين الأفكار وتضاربت الأقوال وتعارضت الأنظار، فانقسم الناس في التحقيق فيها إلى ثلاث فرق؛ الأولى ثبت زيادة المنافع على الأضرار، والثانية تحكّم بقلّة الأولى وجسامة الثانية، والثالثة تقول بمحض الضرر على الإجمال ولا ترى من المنافع إلا طيف خيال أو لامع سراب وآل.

لمّا كان احتكاك الشرق بالغرب اليوم أضحى من أحكام الزمان المبرمة وسنن الاجتماع التي لا تقبل التبديل، وكنّا ممّن قضي عليهم بمشاركة أهل النظر في هذا البحث الحيوي، اقتصرنا هذه الآدنة على تلخيص ما حام على الخاطر من آثار الجانبين تاركين حكم الترجيح لمن كانوا أنفذ أنظارًا وأوسع اختبارًا لا سيما وأنّ مثل هذه المسألة أحقّ أن تنظّم في سلك المباحثات بين نوابغ الطلاب والمبرزين من

(*) النعمة، أيار ١٩١٠، مج١، ج ٢٣، ص٧٣٩ – ٧٤٩.

الكتاب بعد أن أصبحت ملء الأفواه والأسماع وقلَّ أن يخلوَ منها حديث الاجتماع فنقول:

ما من أحد ينكر ما أتانا به التمدّن الغربيّ من ضروب الفوائد التي يعجزنا ضيق المقام عن سردها تفصيلًا ، وكثيرًا منها ما هو أجلى من الصباح فلا يحتاج إلى بيان وإيضاح ومنها هذه:

١) إنّ التمدّن الغربيّ قد أوقفنا على حقيقة أحوالنا إجمالًا من الجهل والغواية والانحطاط العمرانيّ والسياسيّ والاجتماعيّ، فاندفعنا بفضْل المنذرين المرشدين على فتح المدارس وورود مناهل العلم والعرفان سواء كان فيما يتعلّق بآدابنا اللسانيّة أو إحراز اللغات الغربيّة ووقوفنا على أبواب العلوم العصريّة، وقد أصبح من المشهور ما ترتّبَ على اقتباسنا لهذه اللغات من الاستنارة العقليّة والمرافق التجاريّة المادّية مما يكفي فيه الإشارة.

٢) اقتباسنا لأسلوب التعليم الطبيعيّ، وإطراحنا تلك الأساليب المضنية العقيمة المفنية للأعمار على غير جدوى، ولا يقدّر قيمة هذه المنفعة قدرها إلّا من عانى الدرس والتدريس وقابل بين الحالتين وتخلّص من تلك المجاهل ونجا من ذلك التيه وذلك الليل البهيم فطلع عليه صباح هذا السبيل السوي والنهج القويم في العلم والتعليم حقّ مازجَ حبّ العلم فؤاد الطالب بعد أن كان يفرّ منه فرار السليم من الأجرب وأصبح يهجر في اطلابه لذيذ الرقاد إذا لم نقل بات فيه من العبّاد.

٣) إنّ احتكاكنا بالأمم الغربيّة قد قرّبَ المواصلات وسهّلَ المداخلات ويسّرَ أسباب المعاملات ولا سيما في أمورنا التجارية، فبلغَ به بعضنا من النجاح شأوًا بعيدًا، وأضحى لدينا اقتباس أنوار الغربيين على قاب قوسين أو أدنى، وكلّ من ذكر ما كانت عليه بلادنا من الجهل التجاريّ والخبط في الأعمال وعارضَ بها أدركته إلى الساعة الحاضرة من الرقيّ في المعارف التجاريّة يعلم الفرق بين الحالتين ويدرك حقيقة ما بين الغايتين.

٤) إنّ التمدّن الحديث قد حسّن من ذوقنا الصناعيّ ما لا يدقّ على البصير الذكيّ، فإنّ طول العهد بتوارد المصنوعات الغربية إلى بلادنا قد لفتَ ذوي الأبصار من صنّاعنا فعمدوا إلى تحسينها في كثير من أمورها على قدر ما بلغته مداركهم وتهيّأ لهم من وسائل التحسين، فمن راجعَ الفرق بين مصنوعاتنا في التجارة والخياطة والصياغة والحياكة والحدادة وفنون الهندسة والبناء والرسم وما يتعلّق بها ويتفرّع عنها، وبين ما كانت عليه لعقدين من الأعوام، يرى الفرق واضحًا وضوح الشمس في رابعة النهار والمأمول أنّ البداية في هذا التحسين الذوقيّ الصناعيّ ستكال بنهاية حميدة من الارتقاء الصناعي وانتشار حبّ الصناعة بين أربابها أجمعين، ومتى ذاق الشعب لذّة هذا التحسين واستحلى الكسب من كدِّ اليمين وعرق الجبين، ورأى لذّة الاستقلال الذاتيّ ونال عند الأمة ذلك الصرح الرفيع المنوط بهذا الاستقلال، استطاب الفناء في الارتقاء فأدرع الجدّ ولم ينكل حتّى يدرك قنة المجد بتحسين صناعته وامتيازه ببراعته.

٥) إنّ التمدّن الغربيّ قد أكسبنا لطف الذوق والكياسة في أمورنا المنزلية من اختيار الرياش والأثاث وفي أحوالنا المعاشية من مطعم وملبس ومفرش ومضجع ومسكن الحقّ بذلك ما استفدنا من الأمور المتعلقة بحفظ الصحّة وما يدخل من مبادئها وقواعدها في جميع تلك الأمور المعاشية، حتّى لا تكاد ترى في كثير من البيوت من لا يقولون لك هذا المطعم مؤذٍ وذلك الملبس مضرٌّ وذاك المسكن وبِيْءٌ وبيلٌ، استغفر الله، ما عدا ما يتعلق بأزياء النساء التي لا تدخل تحت مبدأ ولا يقوى عليها قانون ولا يجدي فيها فنّ من الفنون، هذا ما أردنا ذكره إجمالًا من منافع التمدّن الحديث الذي اقتبسناه، وربّما فرعَ اللبيب عن هذه الأصول فروعًا تستحقّ الذكر ممّا هو أجدر بغير هذا المقام واخلق بذوي الأقلام. وأمّا أضراره فهي على وجه الإيجاز:

١) إنّ أوّل ما لحقنا من أضرار التمدّن مع تلك المنافع هو نقص الآداب العموميّة والتهاون بالواجبات الأدبيّة كالاحترام والوقار بين الوالد والمولود والرئيس والمرؤوس، فشمخت الأنوف وارتفعت الرؤوس، وكادت الطاعة تفقد والحشمة لا توجد، ناهيك ما أورث هذا التمدّن من وصمة الخلاعة الاجتماعيّة على أنواعها في احتفالات الأفراح ومسارح التمثيل وحدائق المتنزّهات ممّا كلّت في تسطيره الأقلام وملّت في تقبيحه الخطباء والوعاظ على توالي الساعات والأيام واذكر ولا تنس في هذه المرة أمر المسكرات وتفاقم شرّه.

٢) يلحق ذلك أنّ هذا التمدّن قد أفسد المبادئ وأضعف من العقائد الإلهيّة ما

تضطربُ له القلوب وتهلعُ النفوس. فلا يخفى ما تناول بعض الشبّان مع تلك المعارف الصحيحة من المبادئ القبيحة بفضل الكتب المنتشرة بكلّ لسان، ولا سيما بألسنة أهل الغرب، ولا تسل عن تلك المخازي التي تُسرّبُ إلى أذهان المطالعين من تلك الوريقات الفاضحة ومعلوم ما يترتب على انحلال عقدة الدين من التعس واستباحة المنكر عند الضمير.

٣) من تلك الأضرار – حبّ التقليد الأعمى ولا سيّما ما تعلّق منه بسيداتنا السيدات وهذا لشهرة أمره يكاد أوّل ما يخطر للبال من تلك الأضرار، ولكنّه على شهرته أوّل ما يجب تكراره ويفرض تذكاره، فهل من أحد لا يذكر في هذا الباب كم بيتٍ لم يتعهّده خرابٌ؟ وكم وفاقٍ لم يحلَّ به شقاقٌ؟ وكم سلامٍ ما حلّ عراه انفصام؟ بل كم قلبٍ لم يتميّز وفؤاد لم يتمزّق وحبّ لم يفرغ؟ وكم رجلٍ بالدين لم يستمرغ؟ وكم مستورٍ هتكَ ستاره وفضحت حالته وعفت آثاره؟. أو ما نرى حبّ التقليد يستحكم سلطانه على القلوب حتّى حلّ محل المعبود ولم يعد غيره محبوبًا في هذا الوجود.

٤) لم يكفنا هذا الأذى الوبيل من حيث الأزياء، بل تبعه حبّ البطالة رفيق الشقاء وشقيق البلاء، فمع ما هو معلوم من استنارة ألباب البعض بأنوار المعارف واللغات ورثْنَ معه الكبر الكاذب المعيب والترّفع الباطل الدنيء كالتجافي عن الأعمال المنزليّة التي هي أس راحة البيت وهنائه ومخفّفات شقائه وعنائه فقد أصبحت من أحكمت النطق بألفاظ إفرنسيّة تحسب الطبخ يعيبها والنفخ يهينها،

حتّى إذا دامت الحال على هذا المنوال آلت إلى خراب عام ودمار شامل وفناء تام، وذلك لا يختلف فيه فقد أصبح أمره الهمّ المتواصل وذاك تحصيلًا للحاصل.

ويفكّرون في هذا البحث الخطير أنّه إذا لم يتنبّه إلى هذا الوباء الجارف بإصلاح تعليم البنات وإدخال فنّ تدبير المنزل وأصول الحياة البيتية المتعلّقة بالوالدين والأولاد والخادم والمخدوم فالأسلم أن تُهدَم هذه المدارس وتُبدَّلَ تلك المعالم، فيكون الرجوع إلى تلك السذاجة أحرى وأولى ويعود الهناء بالوالدات البسيطات العاملات الطابخات العاجنات الراضيات بالمقدور الميسور أطيب وألذّ وأحلى لأنّه إذا كانت الشقشقة بلسان أجنبي موجبة لذلك الشقاء فالجهل خير منها وما أغنى سيداتنا عنها.

وجملة القول إنّ العاقل الحكيم من قاسَ حاضره على ماضيه، وتدبّر منها لآتيه، ولم يحسب الحكمة إلا ما زاده صلاحًا وآتاه إصلاحًا وأعانه على سعادة دينه ودنياه معتدلًا مقتصدًا حكيمًا سالكًا مسلك الاجتهاد جاريًا في تدبير منزله وتربية أولاده مجرى السداد والرشاد مذكّرًا قول الشاعر الحكيم:

إذا لم يكنْ في منزلِ المرءِ حرّة مُدبّرة ضامت مروءةُ داره

عالمًا أنّه كما يتحامى دخول البدعة على إيمانه، يجب عليه أن يحذرَ هذه المدنيّة التي تذهب براحته الفكرية، وتسقمُه وتكدّر صافي هنائه، وتورده موارد وباله وبلائه، وما أحسن أن ينقشَ على قلبه ما نطقَ به لسان الاختبار ويردّد ليل نهار:

والـزيُّ قـد فـتنَ الـورى ففـدوه في أمـــوالهم مـــن طـــارفٍ وتليـــدِ
فـإذا ســألتَ لفقــرِهم ســببًا فــذا إسرافُهـــــم بمحبّـــــة التقليـــــدِ

متري

المواقع الجغرافيّة وقوّة الممالك(*)

البحث عن الأصول في كلّ منقول ومعقول من أوضح مزايا هذا العصر وادعى ما يوجب له الفضل والفخر. ولقد كان من أجلّ مباحثه الاجتماعيّة تعليل قيام الممالك وارتقائها من الوجوه الطبيعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والأخلاقيّة، فما من عالم طبيعيّ أو كاتب اجتماعيّ إلا ألقى دلوه في هذه الدلاء بين واضع القواعد وموسّع لبناء أو مفصّل لإجمال وموضّح لخفاء.

ولما كان علم الحياة (البيولوجيا) الطبيعيّة في هذا الزمان مهوى أفئدة العلماء حتى هاموا منه في كلّ وادٍ جعلوه بمثابة القياس لكلّ ما يقبل النمو والارتقاء، فبنوا على هذا الأساس تشبيه حياة الأمم بحياة الفرد العضوي، وانساقوا في باب هذا التشبيه إلى تطبيقات لأركانه ووجوهه قد لا تخلو من التّكلف والاعتساف، شأن كلّ من يتوخّى الكمال في قياس التمثيل.

غير أنّ فريقًا من أهل النظر والاعتدال مع تسليمهم للثابت من وجوه تلك المشابهات يقولون: إنّ البحث في نشوء الممالك والأمم وقيامها على دعائم القوّة الطبيعية والسياسية سابقًا ولاحقًا إنّما هو في الأصل مبحث جغرافيّ بحت،

(*) النعمة، نُشرت في جزأين، حزيران ١٩١١، مج٣، ج ١، ص ٦٤ – ٧١.
آب ١٩١١، مج٣، ج ٣، ص ٢١١ – ٢١٨.

فالرجوع إليه من هذا الباب تعليق المسببات بالأسباب فضلًا عمّا فيه من سهولة النظر ولذّة البحث ووضوح التعليل.

وقد وقفنا اليوم على رسالة بديعة الوضع والأسلوب في موضوع هذه المقالة ممّا لم ترَ له قرينًا في العربيّة آثرنا تلخيصها للقرّاء الكرام ونحن على يقين أنّهم يجدون من وحدة البحث وحسن المأخذ وجلاء البرهان ما ينسيهم عناء المطالعة، ويزيدنا إقبالًا على اطّلاب الأبحاث العصرية تنويرًا للأذهان.

لكلّ أمّة في كلّ من أطوار حياتها حاجات طبيعية ينبغي لها قضاؤها، فيتعيّن عليها لذلك اتّخاذ أقوى الذرائع طلبًا لحفظ وجودها القومي. ولكلّ أمّة في مقامها السياسيّ وسائل لحفظ بقائها وارتقائها هي نتائج أحوالها الطبيعيّة يطلق عليها في موضوع البحث مواقعها الجغرافيّة وما يحيط بها من الشؤون.

ومن الأسف أنّ الكتب الجغرافية الموضوعة للتدريس حتّى أحدثها وضعًا وأوسعها تفصيلًا لا تزال على حال النقص والإغفال قي وصفها لأحوال الأمم والممالك من هذا الوجه. فإنّ أكبرها حجمًا وأطولها كلامًا في جغرافية كلّ مملكة وشعب لم تخرج إلى اليوم عن المنهج المألوف من تقرير الحدود ووصف المواقع وعدّ السكان وبيان الوجود من ناتج ومزروع ومصنوع مع إشارة قليلة إلى حالها السياسي والاقتصادي ضاربة صفحًا عن تعليل هذه الأحوال دون التفات إلى بيان العلاقة الطبيعيّة بين حال الأمّة وموقعها ومحيطها، كأنّها في غفلة تامّة عن العوامل الطبيعية في نشوئها ونمائها ومبلغ قوتها الشعبية اقتصاديًا وسياسيًا، وكأنّ تلك المؤلفات مجرّد

رسوم للحدود ومجموع أوصاف تمثل للأبصار وجداول إحصاءات يرجع إليها كما يرجع إلى معاجم الألفاظ.

فليست الأمّة في حقيقتها مشهد مدن ومحصولات وصناعات، إنّما هي مجتمع حيّ متّحد كائن بفعل القوى الطبيعية الثابت الأحكام، وليست مدنها ومحصولاتها ومصنوعاتها إلا مظهرًا لتلك القوى رهن التغيير بتغيّر الأحوال.

ولمّا كانت الأمور الجغرافية هي العوامل في نشوء الأمم وتدرّجها في مسارح الارتقاء فلا تتساوى أمتان في هذين الحالين ولو كانتا من أصل واحد إذا اختلفتا في موقعيهما الجغرافيين، فكثيرًا ما تتساوى أمتان في أصل السلالة والجنس، وتختلفان قوّةً ورقيًّا كما هي حال إنكلترا وأوستراليا، وبالضدّ من ذلك إذا تشابهتا في المحيط الجغرافي تشابهتا في حال التكوّن والنماء ولو اختلفتا أصلًا وجنسًا ومثال ذلك الأرجنتين وأوستراليا وإنكلترا واليابان، فقوّة المملكة إذًا ليست وحدة العنصر والجنس، بل هي مسألة اجتماع المحيط الجغرافي مع توافر وسائل البقاء فيه من حاجيات الحياة.

وعليه فكلّ أمّة ينبغي أن توصف بعواملها الجغرافيّة إذ هذه هي مقياس قوّتها وضعفها. أمّا هذه العوامل فيرجع عددها حسب الأهمّية إلى سبعة (١) موقع الأمة بالنظر إلى مجاوراتها، (٢) موقعها بالنظر إلى المناخ والإقليم، (٣) سطح البلاد من الاستواء وعدمه، (٤) هيئة البلاد وشكلها، (٥) درجة خصب التربة وريّها، (٦) مبلغ القوّة الآليّة (الميكانيكية)، (٧) غناها المعدني.

فلنتقدّم إلى بيان كلّ من هذه العوامل بما يؤذن المقام من الإيضاح.

١ً) موقع الأمة الجغرافي بالنظر للانفصال:

في كلّ طور من أطوار تكوّن الأمّة الأولى كان انفرادها أو ابتعادها عن سواها في موقعها من الضروريات لتكون في مأمن من تعدّي جاراتها، ويتأتّى لها التوفّر على تقدّمها الذاتي في حال الراحة والسِّلم. ومن تصفّحَ تاريخ الأمم الأولى لأوّل نشأتها رأى أنّ انفرادها في موقعها الجغرافي كان من أقدم أسباب تقدّمها. فإنّ المصريين القدماء مثلًا مع صرف النظر عن خصب تربة وادي النيل وحسن إقليمه لم يتسنَّ لهم ذلك الارتقاء لو لم تكن أرض مصر محاطة بالصحراء التي هي حاجز طبيعي يصدّ عنها مضايقة غيرها من الأمم. ومن أدلتنا على ذلك أنّ وادي نهر مسيسيبي في الولايات المتحدة مع مشابهته لوادي النيل في خصب التربة لم يتأَتَّ لشعب مخصوص أن يؤسّسَ فيه مملكة منفردة بذاتها في أول نشأته لخلو موقعه من ميزة الانفراد الجغرافي.

وعلى حال أرض مصرَ يُقاس حال البلاد الواقعة غربي آسيا. ومن أمم أوربا التسعِ أربعٌ هنَّ في حالٍ من ذلك الانفصال الطبيعيّ على اختلاف في الكمّ والكيف. أريد بهنّ اليونان والرومان وإسبانيا وإنكلترا. فإنّ كلًا من هؤلاء الأربع سبقت في تكوّنها الشعبيّ السياسيّ سواها من أمم أوربا المتأخّرة عنها في طور النشأة والارتقاء نظير جرمانيا وروسيا. وقسْ عليهما في شأن هذا التأخّر التاريخيّ سهول شرقي أوربا وأميركا الجنوبيّة والشماليّة مع ما فيها من وفرة الخصب المعادل لخصب وادي النيل.

على أنّ هذا الانفصال الجغرافي لا ينحصر فعله في بداءة تكوّن الأمّة بل لا يزال من عوامل تقدّمها حتّى في أطوار ارتقائها اللاحقة. فكلّما ازداد مدى هذا الانفصال أو الاستقلال الطبيعي لأمّة ما أسرعت في خروجها عن طور النشوء الأوّلي وصعدت في مراقي التقدّم الذاتي اجتماعيًّا واقتصاديًّا.

والذي يحسن سوقه في هذا الباب أنّ من شؤون هذا الانفراد في الموقع الجغرافي تخفيف عناء الجنديّة عن كاهل الأمّة وتوفير قواها للاشتغال في المرافق الحيوية، ولا نطيل في ما يتأتى عن الراحة من عناء الجندية وويلاتها في كلّ أمّة كتب لها الأمن من عداء الجيران والاطمئنان من طوارق الحدثان.

أمّا مزية هذا الانفصال الجغرافيّ في الأمم الحديثة فأظهر ما يكون شأنها في حال إنكلترا بالإضافة إلى فرنسا وجرمانيا من الممالك العظمى. فإنّ بفضل موقع إنكلترا الجغرافي المنفرد مع انضمام أسباب أخرى قد تمّ لها السبق بإسقاط نظام الإقطاع وفك قيود تلك العبودية القديمة والخروج إلى ساحة الحرّية الفرديّة والسياسية والرتوع في ظلّ الأمن من غزوات الأعداء المجاورين والنجاة من أثقال الجندية القسرية إلى غير ذلك من النعم القومية التي يحسدها عليها سائر الممالك المناوئة لها.

وبالضدّ منها مملكة فرنسا، فإنّها مع امتيازها على إنكلترا طبيعيًا كانت تضطرّ بطبيعة موقعها المعرَّض لعوادي الجوار إلى معاملات سياسيّة مع مجاوراتها من ممالك أوربا طالما ساقت إلى أرضها الحروب الطاحنة فعاقتها عن التقدّم الذاتي إلى حدّ بعيد

آمادًا كانت إنكلترا في خلالها تسير سيرًا حثيثًا في مضمار الفلاح، وأما جرمانيا فلوقوع أرضها بعد الانفراد الجغرافي وأقلّ اتّحادًا سياسيًا في أجزائها كانت أبطأ في ارتقاء أمّتها، ولعلها تبقى من أجل ذلك مضطرّة في وجودها السياسي إلى قوّة من الجندية تفوق قوى سائر الممالك.

(أ) الانفصال مع سهولة الاتصال:

إذا بلغ انفصال الأمّة الجغرافي حدّ الانزواء البعيد كان ضررًا على الأمّة بدل النفع لأنّه بسهولة اختلاطها بمجاوريها أيام السلم يتأتّى لها اجتناب أطيب ثمار الاحتكاك من الوقوف على أفكارهم الجديدة واقتباس محاسن عاداتهم وتحدّي مسالكهم من جميع وجوه الرقيّ. ولذلك كانت أحسن درجات الانفصال الطبيعي ما اقترنت معه سهولة الاتّصال الضروريّ لارتقاء كلّ أمّة بل كلّ فرد على الإطلاق.

وهنا أيضًا يسوقنا حظّ إنكلترا إلى إيرادها مثالًا على اجتماع هاتين المزيّتين في موقع بلادها الجغرافي. فإنّها من وجهٍ محصورة في جزيرة بحرية على ما قدّمنا بحيث يمتنع غزوها على العدو، ومن وجهٍ آخرَ واقعة في ملتقى طرق أوربا البحرية ومجتمع اتّصالاتها حتى يسهل عليها ذلك الاختلاط الاجتماعي والاتصال التجاري. وإنّ التاريخ لأكبر شاهد على أنّ الشعب البريطاني لم يكن في مستهل شأنه أهل تجارة وبعثة واكتشاف ولا شعب استعمار ولا قوم صناعات ممّا ميزت به سائر الأمم في هذه الأزمان المتأخرة حتى بوأَها عرش السيادة مجدًا وعزّا عليهن أجمعين إلى هذا

الحين. ولكن نفوس الإنكليز بما رزقت من مزايا الفطنة والاجتهاد واغتنام الفرصة لم تقعد وبلادهم في ذلك الموقع عن اكتساب كلّ نافع من شؤون الدنيا من أيّ وعاء خرج ومع أيّ ريح أتى لتزيد به قوتها الداخلية ومنفعتها الخارجية حال السلم مع المجاورين. وحاصل القول إنّ موقع إنكلترا بما فيه من كمال الانفصال والاتّصال لمن أعظم أسباب سبقها ذاك السبق في ميدان الارتقاء.

ومن أحسن الأمثلة المعاكسة لموقع إنكلترا مملكة الصين.

ليس تأخّر هذه المملكة العظيمة بل الحقيقة لمجرد انحطاط الصينيين في أخلاقهم على ما هو مشهور ، بل هو لطول ما قاست من انقطاعها في بقعتها وبعدها القاصي عن مواصلات الارتقاء إلى أفكار سكانها، فهي بذلك على خلاف مملكة اليابان. فإنّ هذه (على صغر مساحتها وقلّة سكانها بحيث لا تقابل بمملكة الصين) لقرب اتّصالها بالعالم المرتقي قد أظهرت بسرعة ارتقائها الفائق منافع الاحتكاك. على أنّ الصين يرجى لها الخروج من ظلمة ذلك الانقطاع في مستقبل أيامها إذا رفعت أعظم تلك الحواجز بعوامل الاجتماع.

(ب) الاتّصال البحريّ: إنّ قرب الاتّصال البحريّ خير من البريّ، وهو يتوقّف على حسن حال الساحل وشكل البرّ المتّصل به مع جودة المناخ، فإذا تمّت فيه هذه الشروط كان أسهل موصل بين الأمم للتجارة أيام السلم وأمنع سدّ زمن الحرب، والبلاد التي أتاح لها القدر وجود هذا الساحل من حولها نظير بريطانيا كان لها القدح المعلى بين سائر أمم المعمور، بل إنّ أوربا جمعاء لولا ساحلها البحري

وطريقها العام المشترك ما تأتّى لها البقاء على حالها المعلوم إلى اليوم لما في طريق البرّ من مشاق الأسفار وبعد المسافات على ما كان من شأنه في سائر الأزمان وصعوبة نقل المحصولات الأولية الكبيرة الحجوم الباهظة الأثقال حتى على السكك الحديديّة. وأمّا البلاد التي حرمت أطرافها من الساحل البحري فهي أقل شأنًا وأتعس حظًا من البلاد الساحليّة ومثالها بوليفيا وسويسرا والصرب والحبشة وأفغانستان وتيبت ويلحق بهذه ما لم يكن ساحلها مستوفيًا تلك الشروط الضرورية من حسن المرافئ، وسهولة البر المتّصل بها وتجمد البحر بفرط القرّ نظير بلاد بيرو وروسيا في أوربا وآسيا كليهما.

والمتأمّل يرى أنّ أحسن ما يوضح شأن طريق الاتصال البحري مملكة روسيا، فإن أقوى الدواعي التي ساقتها منذ قرنين إلى اليوم إلى ما كان من سياستها الحربيّة إنّما كانت حاجتها الجوهرية إلى منفذ بحري. هذه سيبيريا على سعة مواردها وغزارة خيراتها تكاد كنوزها تذهب ضياعًا لحرمانها من موصل بحري مستوفى الشروط. بل إنّ الحرب الأخيرة التي أقامتها روسيا على اليابان لم يكن لها من باعث سوى اطّلاب هذا الطريق البحري سدًّا لحاجاتها الحيويّة. ولعلّ نقص موقع روسيا العزيزة الشأن من الوجه الجغرافيّ الطبيعيّ هو علّة بطئها في مضمار الرقيّ الشعبي خلافًا لمن يزعم أنّ العلم هي كون الروسيين من الفرع السلافي لا غيره من الجنس القوقاسي.

هذا وإنّ الاتّصال البحري وحده لا يكون تام النفع للمملكة ما لم تجتنِ معه ثمار النعم الأخرى التي مازتها بها الأقدار، وتغتنم ما قيض لها من فرص الزمان. فإنّ فرنسا مع تفوّق طريقها البحريّ على ساحلَي بحر الروم والأوقيانوس الأتلانتيكي أضاعت فرصتها الأولى في مطلع التجارة الحديثة. ذلك أنّها لو اغتنمت ذلك الحين نعمة السلم الداخلي مع انفرادها عن إنكلترا وجنت ثمار ذلك المدخل البحريّ بما يصحبه من سعة البلاد ووفرة السكان وجودة التربة والمناخ وسهولة مواصلات أنهارها واحتفظت بمقامها لدى أسواق أوروبا – لكانت هي ملكة التجارة وسيدة أوروبا بدلًا من إنكلترا.

وآخر ما ينبغي ذكره في باب الموقع الجغرافي هو أنه لا يقتصر نفعه على الطور الأوّل من نشوء الأمة بل يبقى جليل الأثر على تعاقب الأطوار كما يظهر ذلك من مبلغ انتقاع إنكلترا الدائم الحال وحرمان جرمانيا وروسيا على ما سبق من البيان.

٢ً) مناخ الموقع:

(أ) تناهي الحرّ والبرد – لما كان فرط البرد والحرّ مانعًا من الزراعة يمتنع معه حكم الطبع بقاء الأمّة أو نماؤها، فأهالي شمالي الكرة وقبائل الصحراء وإن استطاعوا حفظ البقاء باستخراج ما في أراضيهم من نزر النتاج على منتهى الجهد والحذق إلّا أنّ استفراغ قواهم في تحصيل ضروريات الحياة يشغلهم عن الاهتمام بأسباب رقيّهم المدني أو السياسي. فهم بذلك يشبهون سكان بعض جزائر الباسيفيك حيث يمنعهم خلوها من المعادن من التقدّم إلى دور العصر المعدني.

ثم إنَّ الأقطار التي يجتمع فيها فرط الحرّ والرطوبة يغزر فيها نتاج النبات والحيوان إلى حدٍّ من الإفراط بحيث يمتنع على سكانها، بل على أسمى المتمدّنين، فلاحتها وزراعتها بأحدث الأدوات. وعلى ذلك فلم يستطع سكانها الأولون الخروج من مستوى سكان الغابات ناهيك أنّ قلّة مطالب أهالي تلك البقاع من حسن الملبس والمأوى واكتفائهم بمحصول الطبيعة الفطري الغزير تقعد بهممهم عن الجهاد الحيويّ في مضمار التقدّم بطبيعة الحال. ولذلك كانت فكرة الارتقاء العمراني والسياسي بعيدة عن خواطر القبائل الاستوائية المتناهية بجود الغيث وفرط الخصب.

(ب) وأمّا الأقاليم المعتدلة المناخ، فسكانها هم الذين تأتّى لهم ذلك الارتقاء المدهش من أطوارهم الأولى في شؤون العمران والاجتماع وهم الذين شغلت أخبارهم معظم تاريخ المدنيّة دون سائر أمم المعمور. ذلك أنّ حاجيات الحياة في هذه الأقاليم تسوق سكانها إلى مزيدِ الاجتهاد الحيوي فيرتفع لخواطرهم أفق الارتقاء. ويتّسع لقواهم مجال العمل والعناء وسائق المناخ على الجهاد والارتقاء يطلقُ غالبًا عند الجمهور على مدّة شتائية ينقطع فيها نتاج الأرض مدّة فتشتدّ حاجة الإنسان إلى كثيف الكساء ودفء المسكن واذّخار الغذاء.

وأمّا مَدَنيَّتا مصر وآشور، وإن ظهرتا في إقليمين حارّين، فإنّ سائق المناخ في المملكتين لم يكن دون سائق البرد والجمد، بل إنّهما بفضل مناخهما وخصبهما الطبيعي سبقتا إلى المدنيَّة ما سواهما من أمم الأصقاع الباردة حيث يطول أمد جهاد

الحياة ويعسر التشوّف إلى ما فوق الحاجيات.

وعلى الجملة يقال: إنّ ما كانت من الممالك أقرب إلى اعتدال المناخ خلّفت لما كانت أبعد عنها في تاريخ المدنية والعمران، ولذلك خلفت الأمم الأوروبية المجاورة لبحر الروم مملكتي مصر وآشور في المدنية كما خلفت ممالك غربي أوروبا ما هنَّ أبعد منها عن حدّ الاعتدال. وعليه فقد كان أمر المناخ في جملة مؤخّرات ممالك أواسط أوروبا وشرقيها.

(ج) اختلاف المناخ:

يكون اختلاف المناخ على وجهين؛ الأول قياسي وهو ما يحدث في مدة معينة أو غير قياسي وهو تقلّب الطقس في جهة واحدة من مطر إلى صحو أو من حرّ إلى برد وكلا الحالين عائق عن تقدّم الأمّة ولا سيّما ما بلغ الانقلاب فيه حدّ الإفراط من الحرّ والبرد ومن شواهدنا على ذلك بلاد أوستراليا.. فإنّ هذا التقلّب فيها وخصوصًا في أجزائها المأهولة كان ولا يزال من أكبر مؤخّراتها في حالها الاقتصادي. وكذلك بلاد الهند إذ تبدُّل الطقس فيها من عام إلى عام لا يفتأ يوقعُ الهنود في حال من الشدّة والضيق يتعذّرمعها ارتقاؤهم أمّة مستقلة.

وعلى ذلك يقاس طول مدّة فصل الشتاء على الأمّة. فإنّ الفلاح الروسيّ مثلًا يضطرّ لطول شتائه إلى القعود عن العمل مدى نصف سنته فيورثه الجمود والخمول. وإذا صحب هذا الخمول ما يثقل كاهله من مدافعة أذى الشتاء الطويل أفضى بذلك الفلّاح الروسي المسكين إلى استنفاد قواه وبلغ عجزه عن الارتقاء

أقصى مداه. ولذلك كانت حالة شتاء روسيا من أقوى عوائق لحاقها بأمم الارتقاء.

على أنّ تبدُّل الحال الجوّية قد تكون من أجزل النعم لبعض البلدان لما في هبوب بعض الرياح الباردة عليها في أيام معلومة من السنة كما هي الحال في بعض الولايات المتّحدة. فإنّه مع ما فيها من شدّة حال الشتاء يهبّ في خلاله على شرقيها من الشمال الغربي ريح نقيّة جافّة تنشرح لها الصدور وتنشط بها الأبدان.

وحاصل القول: إنّه لا بدّ في الحكم على نشوء الأمّة لأوّل عهدها وتعيين درجة ارتقائها في أدوارها التابعة من النظر إلى موقعها الجغرافي وحال مناخه معًا لما في اجتماع الأمرين من الدخل الأصيل في عمرانها مهما يكن لها من سائر العوامل الطبيعية والأحوال الخارجية.

٣ً) سعة المملكة وضيقها

إنّ تأثير مساحة البلاد يختلف شأنه باختلاف أطوار الأمّة من العمران، فضيق هذه المساحة في طور نشوء الأمّة إذا رافقته سائر الأحوال الملائمة من شأنه أن يعجّل انضمام عناصرها والتحامها الضروريّ لاجتماع قوّتها وتقدمّها في شوط الارتقاء. ومن أوضح الشواهد على ذلك جزيرة بريطانيا في مبتدأ شأنها. فإنّ صِغرَ حجمها مع انفراد موقعها المار البيان كان من أفعل العوامل على سرعة التحام قبائلها الأولى وامتزاجها (ولا سيّما في جزئها الشمالي) أمّة واحدة. وكذلك كان شأن مصر وآشور واليونان والرومان وسائر الأمم القديمة على التغليب بانتفاعها من انحصار مواقعها في مساحة قليلة الامتداد على اختلافٍ في درجة الانتفاع.

وأنصع مثال على ضرر فرط هذه السعة للمملكة هو روسيا، فإنّها ذاقت وما برحت تذوق من أجلها الأمرَّين في سبيل توحيد عناصر أمّتها المختلفة الأجناس وما ذلك على قول العارفين إلّا من عظمة تلك السعة الأرضيّة. وما عدا أمر هذا التوحيد فإنّ في اتّساع حدود البلاد قد يؤدّي اختلاف المناخ في أطرافها المتباعدة إلى خطر من تفريق ذلك الاتّصال وحلّ عقدة الاتّحاد الوطني كما تدلّ عليه حال الولايات المتحدّة وأوستراليا إذ كاد اختلاف المناخ في أطراف أقسامها بين الحرّ والبرد يهدّد الأمتين بالانقسام.

على أنّ ضيق مساحة البلاد وإن كان ضروريَ النفع في بدء نشوء الأمّة واتّحادها قد يكون جسيم الضرر بها في أطوار نمائها وارتقائها. فلا يخفى أنّ مدار حياة الأمة المعاشيّة على نتاج أرضها. فكلّما تكاثر عدد خلقها ازدادت حاجتها إلى مواد الغذاء والكساء والإيواء وأدوات الأعمال فلم تعد مساحة البلاد الأولى تكفي لإنتاج تلك الحاجيات كلّها على ما هو ظاهر.

نعم إنَّ الأمّة قد تستطيع جلب المعادن من غير بلادها وابتياع مواد المعاش بأثمان مصنوعاتها إلّا أن ذلك ليس من أسباب قوّتها الطبيعيّة، فإن لم تكن مساحتها من السعة بحيث تكفي لتناول حاجيات الحياة من أرضها نفسها قلّ اعتبار قوّتها بالقياس إلى ما سواها. اعتبر ذلك بحال هولندا فإنّ ميلها إلى الهبوط منذ قرنين عن مقامها الذي كاد يعدّ سيادة على سائر الممالك إنّما ينسب إلى ضيق مساحتها بعد تكاثر سكانها. ومع أنّها قد ازدادت رقيًّا ذاتيًا بالنسبة إلى سابق تاريخها إلّا أنّها

بالقياس إلى غيرها تعدّ اليوم في حال البؤس والضنك لاختلاف الموازنة بين مساحة أرضها وعدد السكان.

وأوضح من حال هولندا في هذا الشأن حال إنكلترا أيضًا فإنّ ضيق مساحتها بعد أن كان من موجبات رقيّها في أوّل أدوارها، على ما تقدّم تفصيله، أصبح اليوم وقد اتّسع نطاق عمرانها وتوفّر عدد سكانها من دواعي هبوطها في سلّم الارتقاء على ما يحاذره جلّة مفكري الانكليز.. ولما كان الفحم الحجري عمدة مواردها ولم يعد مقداره على نسبة ما بلغ من عدد سكانها على تقدير أهل الإحصاء كما سيأتي بسطه في موضعه أخذ أولئك المفكرون في إيجاد مورد آخر يسدّ مسدّ الفحم لدى نفاذه وإلا ضاقت إنكلترا بسكان لا تكفيهم نتاج أرضها للغذاء والكساء والمأوى. أمّا سعة مملكة روسيا بهذا الاعتبار فهي أضمن لارتقائها في مستقبل الأزمان إذا توافرت لها سائر دواعيه ويقاس عليها الولايات المتّحدة ومملكة الصين.

وغاية ما يقال في باب مساحة البلاد: إنّ ضيقها نافع للأمّة في أوّل نشأتها ضار لها في أدوار التكاثر والنماء وبالضدّ من ذلك سعتها فإنّها ضارة في طور التكون نافعة في ما يلي من أطوار التوسّع والارتقاء على ما أشرنا إليه في مقدّمة هذا الفصل. وللقوم في تقويم البلدان ونسبته إلى عدد السكان ومقايسة أهمّ الممالك ما قرّروه بالأرقام.

٤ً) هيئة الموقع الجغرافي:

لشكل موقع المملكة والأمّة جغرافيًا شأن خاص يمتاز أهمّية عن بعض العوامل الطبيعية في قوّتها السياسية والاقتصادية (والأخلاقية أيضًا) بما له من الدخل الطبيعي سواء في أحوال المناخ وما ينتج عنها من خصب التربة وجدبها أو في مسألة اتّصالية البلاد على ما مرَّ بك.

إنّ تأثير هيئة البلاد في شأن ارتقائها لم ينل إلى يوم حظًا من درس العلماء ما نالته سائر العوامل الطبيعية، لأنّ نتائجه يعسر انفرادها عن سائر المؤثرات فيتعذّر تعميم الحكم فيما فقد يتشابه بلدان في هيئتها الأرض، ولا يتشابهان في تأثير الهيئة لما يقترن بهذا التأثير من المؤثرات الأخرى كالموقع نفسه والمناخ وعلاقة البلاد بغيرها ومساحتها، فباختلاف هذه يختلف ذاك.

على أنّه ممّا يجب أن يذكر من شأن هيئة البلاد أنّ التناهي فيها غير صالح لارتقاء الأمة على حكم التناهي في المناخ، فكلٌّ من كثرة اختلاف الهيئة وشدّة تساويها معارض للرقيّ غير أنّ الأخيرة تفضّل على الأولى. فإنّ فرط الاختلاف في شكل البقعة ما لم تكن عظيمة الاتّساع يعدّ معادلًا لوعورتها فيكون عائقًا عن تقدّم الأمّة إلى حدّ بعيد.

وأفضل مثال على ذلك بلاد البلقان في أوربا، فإنّها لما يعترض أقسامها من حواجز الجبال تعسر المواصلات بينها، وفي هذه الحال تشتدّ حاجاتها على السكان ويمتنع معها توحيد أقسامها السياسية فيعاق ارتقاؤها أمّة واحدة. ولا يبقى من

مزيّة لتأثير شكل البلاد إلاَّ في تأليف حكومات متعدّدة تشبه حكومات القبائل القديمة وامتناعها عن دخول العدو أيام الحرب.

وكذلك يتضح تأثير اختلاف الشكل السطحيّ إذا بلغ حدّ الكثرة من النظر إلى أقسام بريطانيا، فإن اسكتلندا وبلاد واليس وإن كانت وعورتها حصنًا منيعًا في وجه المعتدي إلاَّ أنّها وراء قسميها الثالث(إنكلاند) في شؤون القوّة والارتقاء.

وأما تماثل سطح البلاد إذا بلغ حدّ الاستواء وقلّ فيه تنوّع المؤثّرات التهذيبية فمالت الأمة إلى وجهة تكاد تعادل حال الجمود، فلا يبقى لها حينذاك من عوامل الارتقاء إلاّ نتاج الأرض وإذا كانت سعة البلاد على الحدّ الكافي انضمّ إليه مزيّة اختلاف المناخ في أطرافها المتخالفة. على أنّها من الوجه الأوّل يغلب أن يكون استواء الأرض مانعًا من اكتشاف معادنها واستخراجها، ومن الوجه الثاني يكون فرط اختلاف المناخ في أقسامها معارضًا لانضمام عناصر الأمّة وتضامنها على ما تقدم في موضعه.

ثمّ إنّ أحكام هذا التماثل تصحّ غالبًا على البلاد لأوّل نشأتها. ولكن إذا تجاوزت هذا الطور كان تماثل السطح من عوامل القوّة وضامنات البقاء. فإنّ فيه يسهل تناول موادّ الحياة الضرورية واقتيات العدد الوافر من السكان بخلاف السطوح الوعرة أو المختلفة الأشكال فإنّ تربتها بالطبع أقلّ عمقًا وزراعتها تعجّل عليها الهرم والعجز عن إنتاج المزروع. وفوق ذلك فإنّ بوعورة البلاد يفقد قدر جزيل من مجموع أمطارها حتى تماثل نتيجة ذلك الخسران نتيجة القيظ. ولا تخفى

حاجة الأمّة إلى كفاءة مقدار الوصول من أراضيها وتوقّف ارتقائها على نجاح زراعتها. ولذا كان توافر السهول في البلاد المتّسعة من أعظم أسباب ارتقائها ودواعي بقائها.

وخلاصة ما يحفظ من أمر شكل البلاد من حيث ارتقاؤها وحفظ بقائها أنّه يقتضي أن يكون من وجه على حدّ من الاختلاف يكفي لتنويع المؤثّرات التهذيبية، ومن وجه آخر على امتداد وافٍ بحاجة السكان المعاشية. وأقرب الممالك كمالًا إلى هذه الحالة الفضلى الولايات المتّحدة. وعليه يصحّ أن يقال في ختام هذا الباب: إنّ ممالك المستقبل العظمى ستكون مواقعها في الأجزاء السهلية من سطح المعمور. وإذا صحّت نبوة العلم فستكون أعظم هذه الممالك في إحدى القارات الأربع العظام وهو سبحانه أعلم وفي تصريف الأمور أحكم.

٥ً) خصب التربة مع حسن الريّ:

قد ألمعنا في بعض كلامنا السابق إلى أهمّية خصب التربة وحسن المناخ وأشرنا إلى أنّ الزراعة من العوامل الأساسيّة في نشوء الأمّة، وهنا نخصص الكلام عليها في ما يلي هذه السطور من الارتقاء فنقول موجزين: إنّ مقدار الخصب الضروري لنشوء الأمة ما كان على حدٍ معتدل بحيث ينضمّ إليه جهد معتدل من يد الإنسان. فلا نزره مع الاجتهاد ولا فيضهُ مع الكسل بصالحين في ذلك الطّور الأوّلي كما يدل على ذلك حال الأمم العظمى الحديثة فإنّها ما ارتقت رقيّها الحديث إلاَّ كان أساسه ذلك الطّور الزراعي. ومن أحسن الشواهد مملكتا بريطانيا وجرمانيا اللّتين كانت

الزراعة فيها أعظم العوامل لنشأتها الأولى وإن أصبحت اليوم لديها من ثانويات الأمور.

وذلك أنّه مهما يكن للزراعة من الشأن في تأسيس قوّة الأمّة فإنّها في بعض ما يلي من أطوار قوّتها وارتقائها ينحطّ فيها الشأن الزراعي عن مقامه الأوّل بما يطرأ على الأمّة من أحوال العمران المرتقي وما يحدث لها من اختلاف النسبة إلى غيرها من الممالك اعتبر ذلك في تفوّق إنكلترا في القرن السابق في مطلق الشؤون، واذكر جرمانيا واليابان في هذا القرن من حيث التجارة والصناعة يظهر لك أنّ عوامل ارتقائها الحديث لم تعد اليوم من جانب الزراعة في شيء، وقس على هذه الممالك الثلاث سائر شريكاتها في هذا الرقيّ اللواتي أجزنَ دور التكوّن والطفولة بخلاف الأمم الصغيرة الحديثة النشأة كالأرجنتين والبرازيل وكندا اللائي لمّا يبلغنَ إلى اليوم مبلغَ أولئك من قوّة النماء. فإنّ هاتيك الثلاث الممالك العظمى وأمثالها أصبحت عوامل ارتقائهنّ الطبيعية قوّة الآلات وغنى المعادن. وسيبقى لهذين العاملين هذا الشأن الرفيع في اعتلائها إلى أن يلحقهما وهنٌ يصرف الزمان فيعود عامل الزراعة إلى مقامه الأوّل ويعود معه ذلك الشأن من خصب التربة وجودة الريّ على ما سيجيء بيانه في الكلام على العاملين الآخرين.

٦ً) قوّة الآلات:

يدخل تحت هذا العامل جميع الوسائل الطبيعيّة لترقية القوى الآليّة، وهي الفحم الحجري والماء الجاري والرياح وأشعة الشمس، ولنوجز القول في الأولين ما

أمكن الإيجاز.

(أ) من لوازم المدنيّة الحديثة أمران يتوقّف حصولها على قوّة الأدوات. الأول استخدام الحرارة الحاصلة من غير الشمس، والثاني استخدام الآلات سواءٌ كان لاصطناعها بالذات أو لما ينشأ عنها من القوى. ولمّا كانت الحرارة التي يحتاج إليها في إدارة المصنوعات وغيرها يمكن حصولها بوساطة الكهربائية جاز أن يجتمع ذلك الأمران في منشأ واحد من منشآت القوى. وقد كان الفحم الحجري إلى الساعة هو المنشئ الوحيد لتلك القوى الآليّة لأنه ينشئ الحرارة إما بنفسه أو بوساطة قوّة البخار. وإذ كان يتأتّى عن الفحم ما عدا ذلك إمكان نقل القوّة الكامنة إلى مكان استخدامها فقد كان عاملًا لا يضاهى في ترقية الممالك ولذلك ساغ أن يتّخذ قياسًا للقوّة الآليّة في كل منها.

ولمّا كان للقوة (الميكانيكية) ما هو معلوم من الشأن الاقتصادي العمرانيّ والأثر الجليل في قوّة الممالك آثرنا إيضاح أمرها على مبدأ حسابي قرّره أهل التحقيق ممّا لم نقف على بيانه في العربية فنقول:

إنّ أحسن ما يعبّر عن القوة الميكانيكية في مملكة ما بما يعادلها من قوّة الحيوان والإنسان.. فقولنا (قوّة حصان واحد) يراد به اصطلاحًا ما يساويها على التعديل من عمل حصانيين أو عشرة رجال تشتغل يومًا واحدًا عشر ساعات. وإذ كانت الآلة البخارية تحتاج في أعمالها بقوّة حصان واحد ساعة واحدة إلى نحو خمس أقق من الفحم على أكثر تعديل اقتضى لإنتاج قوة حصان واحد ساعة واحدة إلى نحو خمس

أُقق من الفحم على أكثر تعديل اقتضى لإنتاج قوّة خمسين حصانًا تشتغل في اليوم الواحد عشر ساعات نحو طنّ (٤ قنط) من الفحم. وبعبارة أخرى طن واحد من الفحم يُصدرُ من القوة ما يعادل عمل مئة حصان أو خمسمئة عامل. وعليه فإذا استخرج عامل واحد في اليوم الواحد طنين فحمًا عادل لعمله هذا على حساب قوّة الرجل عمل ألف عامل من سكان المملكة. فيقتضي إذًا لاستخراج ثمانين ألف طن يوميًا في سنة واحدة إذا كانت أيام العمل فيها ثلاثمئة يوم أربعة وعشرين مليون طن فيكون ما يعادل قوّتها من العمال عددًا يفوق عدد سكان بريطانيا.

وإذ كان مبلغ الحاصل من الفحم اليوم في إنكلترا مئتين وتسعين مليون طن كان معادل لهذه القوّة من العمال يزيد عشرة أضعاف على سكانها، وكان ما يصدر منها إلى غيرها من الفحم معادلًا لنزوح عشرة ملايين من العمال. فتأمل واعجب ما شئت بفضل هذه القوّة الطبيعية على المملكة تتمتّع بها.

على أنّ قوّة الحصان الواحد المشار إليها يجب ألّا يقتصر في اعتبار فضلها على مجرّد استخدامها بذاتها الذي يعجز عنه الحيوان والإنسان بل ينبغي أن يعتبر فيها أيضًا اقتصاد نفقات ما يعدلها من ألوف الخلق المؤلّفة على الغذاء والكساء والإيواء، فإنّ بفضل هذه الوفرة وذلك الاقتصاد تأتي للممالك التي رزقت قوّة الفحم الطبيعية ذلك الرقيّ المدهش والتوسّع العجيب لأنّ هذه القوّة يحصل معظم مبادلتها بالمواد الضرورية لمعيشة السكان.

غير أنّه يشترط لدوام النفع بمبادلة قوّة الفحم شرطان أحدهما ضروري حيوي؛ الأوّل أنّ معظم الانتفاع بها إنّما تظهر حقيقته بعد اجتياز الأمّة طورها الأوّل من النشوء فهو من خصائص ارتقائهافي طورها الأخير، والثاني هو أنّ هذه المبادلة يقتضي أن يبقى معها على الدوام في البلاد موارد أخرى لا تزال في طورها الأول من الاستخدام بحيث لا تلحق حدّ النفاد وتكون ذخرًا لحاجيات الحياة وهذا هو الشرط الحيوي في بقاء قوّة المملكة على ما ترى.

وذلك أنّ الاعتماد في رقيّ الأمّة على عامل واحد من العوامل الطبيعية تفوق به وقتيًا سائر الأمم كما جرى لجرمانيا مثلًا ليس بقياس مأمون المغبة على قوّتها الصحيحة الدائمة مهما بلغت في ظاهر أمرها زمنًا من الأزمان. فقد ينقلب بها دولاب الحدثان أو يقلّ حاصل الفحم عن حدّ الكفاء، فإذا لم تذّخر في حوزتها ما يسدّ مسدّه من القوى الطبيعيّة لدى نفاذه ممّا يتوقّع حدوثه لأكثر الأمم اختلّ ميزان الاقتصاد في البلاد فاكتنفتها ظلمة الاستقبال وأدركتها الحيرة في تدارك حاجيات الحياة وانساقت إلى وجهة جديدة من تدبير الأعمال صونًا للبقاء، ولا سيّما إنّ هذه الحاجيات أصبحت على ازدياد بنماء السكان. فالبلاد التي كان معتمدها على محصول الفحم يستنفد هذا الجهاد من دمائهم آخر نقطة. وحاصل ما يذكر في باب الكلام على قوّة الفحم بعد هذا البيان أنّ الدور الذي تتوقّف فيه تجارة الأمّة وصناعتها إنّما هو رهن الزوال من الأدوار ولا يعد على التحقيق إلا خطوة من خطوات نشوئها وتقدّمها في سبيل توفيقها لأحوال محيطها الطبيعية.

(٢) قوة الماء: إنّ غزارة الماء الجاري بالنظر إلى استخدامه قوّة ميكانيكية تعدُّ من أفضل العوامل الدائمة على قوّة الأمّة وارتقائها بخلاف ما سبق بيانه من نفاذ الفحم، لأنّه إذا أعمل الذكاء العلميّ في تدبير قوّة الماء كان الاعتماد عليها مضمونًا بدوام نزول الغيث. وهنا يجب أن يرجع بالضرورة إلى أمر مناخ البلاد ومساحتها وهيئة سطحها لأنّ مقدار الماء الجاري على سطحها تابع لمقدار المطر الذي يقع فيها مع حجم السطح ولأنّ معدّل جريه موقوف قياسه على هيئته. فالسطح الضيّق المساحة والمتماثل الشكل في بلاد ما قليل الجدوى في قوّة الماء لأنّ في الأراضي المستوية أو القليلة الميل يقلّ فيها قوّة جريه وسعة امتداده، وكذلك المساحة القليلة الاتّساع يكون حاصل الماء فيها قليلًا بالطبع مهما تكن هيئة سطحها، وعلى الجملة يقال: إنّ اعتدال الاختلاف في هيئة السطح الجاري عليه الماء هو أحسن الحالات لتوافر مذخور الماء. وباعتبار الزراعة يعدّ ثاني الشروط الكافلة بحسنها.

متري

العلمُ يقودُ إلى السّلم(*)

إذا نظرنا إلى حبّ الذات البشريّ في الأفراد والجماعات وما يولّده من شرور الشقاء والنزاع لا نعجب من تسميته (بأشرس الحيوانات). وما تاريخه على الحقيقة إلَّا سير الخصام والحروب منذ لم يكن على الأرض سوى قبيلة واحدة ولسان واحد إلى أن تكاثر النوع وافترق شعوبًا وقبائل. ولم يقتصر أمر العداء وتحكُّم السيف على أطوار الهمجية الأولى بل ربّما كانت آثار الخلاف بين الأمم أظهر وأفظع كلّما ارتقت في معارج الاجتماع وتقدّمت في سبل المدنية والعمران. فما عاهد الدهر أمّة في العصور الخوالي على العزّ والفلاح ردحًا من الزمان حتى كادت لها أخرى كيد الطمع والحسد فتربّصت بها الدوائر وناصبتها العداء حتى أوردتها موارد الهلكة والفناء، ولذا دالت الدول وتعاقبت الممالك فخلفت الواحدة أختها على كرّ الدهور بعدما أجرت الدماء بحارًا طاغية وثلَّت العروش وأصارت القصور آثارًا عافية تبكي سكّانها وتشكو زمانها.

نعم إنّ الحروب قد توجبها الضرورات الكبرى المقدّسة حتى تدخل باب الواجبات (من نحو حماية الوطن والعرض وصيانة الشرف ودفع الظلم وتأييد

(*) النعمة، أيار ١٩١٢، مج٣، ج ١٢، ص ١٠١٥ – ١٠٢٢.

الحرية الشخصيّة والدينية). إلّا أنّ نصراء الإنسانية اليوم يرون دوام الحرب شرًّا على كلّ حال، ويعجبون للشعوب كيف يحسبون الفتك والسفك من مفاخر التاريخ، بل يعدون الحرب نفسها كأنّها من أسمى الفضائل وكرائم الأخلاق فينظمون الوقائع والملاحم أناشيد تتغنى بها الأطفال وقصائد تعلّق في المساجد ويرنّم بها في العبادات، حتّى ترى المعاني الحربية في الآداب العربية القديمة مثل أركان الفخر والحماسة والمديح من أبواب الشعر القديم، فكلّما أبدع الشاعر في وصف ذلك الفتك الوحشيّ سمت عند الأدباء طبقته في بلاغة الشعر. ويقول دعاة السلام من أهل الفلسفة الأدبية: إنّ مثل الألياذة اليونانية التي يتفاخر بنقلها وإحرازها شعراء الأمم وإن امتازت ببلاغة الشعر الخالدة إلا أنّها لانبنائها على فتك الإنسان بالإنسان أجدر أن تُقرأ بدموع الأسى على وحشيته ويقدّم لها المقدمات الصادعة بشرور الناطق من أنواع الحيوان تقبيحًا وذمًا، وأنّ ما يلبس هذا الشعر من مطارف البيان الساحر حقّه أن يمزّق تمزيقًا فيبدو ما تحته من مخازي البغض والعداء، وما يقال في نظمه كواكب درّ وأنجم زهر ليس على الحقيقة إلا ألسنة من نار تلهب الأحشاء.

وقد بلغ من يأس اليائسين قولهم إنّ هذه المدنية الحديثة مع ما تمّ بها من مظاهر الحضارة وتوافر أسباب الراحة ورفاه العيش في شؤون الحياة واشتداد روابط التآلف والاجتماع قد زادت مطامع الإنسان فلن يرجى منها استقبال يسود فيه الرضى وتزهو ثمار الاقتناع وتشرق أنوار الوئام والتآخي والسلام.

إلَّا أنّ فريقًا من المفكرين المتفائلين بالخير لمستقبل الإنسان يخالفون أولئك اليائسين المتشائمين بما يرجونه أخيرًا من ركود ريح الأطماع وانخذال كلمة النزاع وانتصار لواء السلم.

وهم في السعي لإبطال الحرب على ثلاثة أقسام، فقسم منهم يتّخذ طريق التربية الأخلاقية المحضة لإحداث كلّ طائفة من طوائف سكان الأرض حتى تنزل كراهة الحرب من صميم القلوب ويجبل حبّ السلم في الطباع، فتجري في النفوس مجرى الدم في العروق، فيكون ذلك الإبطال ثمرة الإقناع النظري البحت، وقسم يرى التوسط والتحكيم في كلّ خلاف ينشأ بين الحكومات كما سيأتي الكلام عليه في محلّه من هذه المقالة، وقسم يرى أنّ العلم وحده هو الكفيل الأخير بحمل الناس على اختيار جانب السلم على كلّ حال حين تعمّ أنواره وتتّضح آثاره في أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فيكون إبطال الحرب ناشئًا عن فعل ناموس طبيعي هو اختيار الأنسب بعد التجربة والاختبار، وقد أعملَ أرباب هذا الرأي النظر في مآثر العلم ونتائجه الأخيرة التي تدعو أهل الأرض في آخر الأمر إلى إيثار السلم، ووقفنا على شيء من ثمار اجتهادهم الطيبة في هذا الطلب الجليل فاقتطفنا منها ما تراه في هذه المقالة وبالله التوفيق قالوا:

١) إنّ استخدام العلم في الصناعة والزراعة والتجارة وتقليل أسباب الأمراض والموت قد أزال الحاجة إلى فرط التعب البدنيّ، وقد زالت معه أيضًا سلطة العظماء والأقوياء في استخدام العدد الأوفر من الأمّة بطريق الاستعباد

واستقلال الأرباب بوسائل العلم والتهذيب، فالعبودية خضدت شوكتها وديست أعلامها على التدريج، ثم إنّ تقدّم الاكتشاف والاختراع العلميّ السريع الخطا في القرن الماضي قد قلّل مقدار العمل اليومي المطلوب من العامل، فازدادت له أسباب الغذاء والكساء والإيواء، وقد تناقص متوسط الوفيات إلى نصف ما كان عليه وازدادت للأحداث أعوام تهذيبهم وتوفّرت لهم وسائل التحصيل من طريق المساواة بين الطبقات، ولم يعد من حاجة للاعتماد على طائفة ممتازة من الأمة لإدارة أعمال الحكومة على ما كان في سابق العهد من نظام الملكية المطلقة وسلطان الأعيان والأشراف، بل أصبح عماد المناصب الأهلية الذاتية والاستحقاق الشخصي بما تمهّد لكلّ فرد من الأمّة من سبل الاستعداد والارتقاء تصديقًا لقول صاحب الأمثال: «أرأيت ولدًا مجتهدًا أمام الملوك يقف؟».

٢) إنّ العلم بفضل ما أنال الشعوب من الحكم الجمهوريّ أو الدستوريّ قد أدّى إلى تقليل أسباب الحروب.

نعم إنّ الشعب الدستوريّ قد لا يتحمّل دواعي الظلم والاعتداء فيهبّ إلى دفعها بحدّ الحسام والذبّ عن الشرف بكلّ مرتخص وغال، إلا أنّ خطر التهوّر والحماس حتى في هذه الحال أقلّ احتمالًا ممّا كان يجري لدى اشتعال نيران الحروب في غابر الأزمان. فقد كان شبوبها بتلك الأيام أكثر ما يقع من مجرد مطامع الملوك وفساد إدارتهم وسوء سياستهم، حتّى لقد كان الملك المطلق الغشوم يثير حربًا لقضاء شهوة من مفاسد النفس أو إنفاذًا لكلمة بدرت منه آونة الغيظ، ولكنّه لما

تأصّلت أحكام النظام الدستوري من نفوس الشعوب أخذت تلك البوادر بشكائمها، وتناول المشكلات أهل النظر والرأي في المجالس الدستورية المتعاقبة، فتقلبها على وجوه الموازنات الجندية والمالية والسياسية وغيرها، فاتّسع بذلك نطاق الرويّة والاستبصار ولم يبقَ لتهوّر الفرد من مجال.

إنّ الأحكام الجمهوريّة والدستورية لا تزال إلى الساعة بعيدة عن حدّ الكمال، فإنّ توزيع الثروة السريعة النماء لم ينل حظه إلى الآن من قواعد الحكمة والعدل، وما برح التهذيب المدرسيّ الشعبيّ محتاجًا إلى الإصلاح والتحوير، غير أنّ لنا من روح الزمان هاتفًا يدلّ على أنّ الديمقراطية الحقّة آخذة في طور البلوغ وستكون مبادئها أقوى ضمان لحفظ السلام في ممالك الأرض مما لم يحلم به الغابرون، والحاصل أنّ الشورى ابنة العلم فالعلم يقود إلى السلم.

٣) من نتائج العلم وآثار الاختراع توافر أسباب المعاش بأسرع من تكاثر الناس. لقد شاع في هذا العصر الجديد تخوّف الأمم من غلبة سلطان الجوع على صعاليك الخلق، فأشار بعضهم باعتماد الوسائل لتقليل النسل حتّى عمّ هذا المذهب المعروف بطريقة (مالثوس)، ولكنّه بفضل التدابير العلميّة لم يعد من حاجة إلى مثل هذه الوسائل المكروهة الثقيلة على النفوس فأخذت أسباب المعاش تزداد على نسبة ازدياد المواليد، وذلك أنّه بفضل تعاميم تحوي من بعض الأمم عددًا لم يجتمع في حاضرة من حواضرها الأصليّة. وزبدة القول: إنّ بركات هذا الاختلاط بما تقدّم من سهولة التواصل إنّما هي من ثمار العلم، فالعلم بذلك يقود إلى السلم.

٤) إنّ استخدام العلم في صنع الأسلحة الحربية يضيّق دائرة الحرب ويخفّف وطأتها وبيان ذلك من وجهين؛ (الأول) هو أنّه إذا كان أحد الخصمين يتّخذ السلاح الحديث العلمي والآخر على عكسه يتأتّى الظفر للأول على وجه السرعة فتقصر مدّة القتال فتعود مياه السلم إلى مجاريها على أسهل سبيل، وربما تخوّف الضعيف الحال القليل العدّة خصمه الشديد المحكم بسلاح فالتمس وجه السلامة اختيارًا لأخفّ الضررين، وعلى ذلك فقد سدّت أبواب الهلع القديم من غارات قبائل الهمجيّة والوحشية على ممالك المتمدّنين من مثل هجوم القبائل الشمالية المشهور على أوربا وغارة جنكيز خان وتيمورلنك من طواغي آسيا، فأصبح العالم في أمن من غزوات سائر المتوحّشين بفضل الامتناع بالسلاح المصنوع على القواعد العلميّة. (والوجه الثاني) هو أنه إذا تكافأت قوى الممالك بالسلاح العلمي الحديث عاد الأمر إلى مزيد الحذر والتبصّر اجتنابًا للتهوّر والمجازفة بالأرواح والأموال حتى إذا فرض انسياق الخصمين إلى تحكيم السلاح لم يَطُل زمن القتال بالقياس إلى ما كان شأنه في سالف العصور فيصحّ أن يقال هنا: إنّ السلاح أنفى للسلاح. وهذا الذي حدا بالعقلاء المفكرين اليوم من دعاة السلام إلى المناداة بتحديد التسليح، وأخصّ ما يذكر في هذا المساق أنّ نفقات العدد الحربيّة العصريّة على اتّساع دائرتها وتوفير أسباب النظام والراحة للجيوش إجمالًا وأفرادًا مع ما تقتضيه الأساليب الفنّية في مداواة الجرحى من ضروب التكاليف التي لا يتناولها العدّ، وتعجز أقلام البسط والبيان، كلّ ذلك أضعف الأمم حتى أغناها، فأصبحت تنوء بحمله وترزح تحت

باهظ أعبائه، حتى إنَّ كثيرًا من خسائر الفائز في الحرب قد تربو على أضعاف ما يتخيّل من الربح، فيعود بصفقة المغبون ويعدّ تهوّره ضربًا من الحماقة والجنون. وإنّ قادة السياسة وولاة الأمر مهما يكن لهم إلى اليوم من بقيّة غلبة الرأي ونفاذ الحكم كادت شعوبهم التي ذاقت طعم الراحة والسلام تعارض ميول النزاع والخصام إلى حدّ العصيان والقيام على الحكام كما ذاع الآن عن حال الشعب الإيطالي وهياجه الشديد لما ورّثته الحرب الحاضرة الجائرة في سواد الأمّة من توقّف الأعمال وشقاء العيال ونفاذ المال فوق الاحتمال، والظاهر أنّ ناموس بقاء الأنسب قد أخذ سلطانه يستحكم في قلوب أبناء هذا الزمان بفضل النور العلميّ، حتّى لا يعود في آخر الأمر حكم للهوى النفساني، ولا يبقى لنزاعات النزق والطيش شأن في سياسة الشعوب، فيخلو للعقل الراجح عرش السيادة في الأحكام، فلا يقدم على عمل دون إجالة النظر وإطالة التفكير في العواقب، فيختار أسلم الوجوه وأفضل الآراء. ولعلّ أظهر ما يرجى من ذلك في أمر الحرب؛ فإنّ صبح هذه الآمال قد بزغ فجره بما نرى ونسمع من تكاثر الراغبين في السلام من ذوي السلطة والحكم واشتداد الميل إلى فضّ الخلاف بالتوسّط والتحكيم، وهل ذلك كلّه إلا نتيجة العلم الذي قضى بازدياد النفقات الحربيّة فأقصى رغبة الأمم عن ويلات الحرب والجنوح إلى نعم السلم.

٥) وقد ألحق بعضهم بهذا الوجه أمرًا معنويًا يجوز أن يلحق بالوجوه الأخلاقية المستقلّة وهو : أنّ حالة الجندية الحديثة بما أفاض عليها العلم من حسن

النظام وأحكام الفنّ لم يبق فيها على العموم ما كان لها في غابر الأيام من مزايا البسالة البدنية التي كان يتفاخر بها أبطال الملاحم السابقين في ساحة الكفاح والنزال. فلم يعد من شديد الوقع في النفوس لمثل قول عنترة:

حصاني كان دلّال المنايا فخاض غبارَها وشرى وباعا
وسيفي كان في الهيجا طبيبًا يداوي رأسَ من يشكو الصداعا

بل حلَّت الدربة الفنية محلّ القوّة البدنية، وعادت المزيّة في الحرب للحذق الفكري وفضل الرأي والتدبير بما يصحّ أن يقال فيه ما قال المتنبي:

الرأيُ قبل شجاعة الشجعان هي أولٌ وهو المحلُّ الثاني

يضاف إلى ذلك أنّ الجندية أصبحت في الغالب مهنة من سائر المهن، فلم تعد الرغبة فيها من جانب والطمع الفردي بشهرة الانتصار والفوز بإكليل الغار، وإذا استثنينا من ذلك مبدأ الواجب الحربي حماية للذمار وذودًا عن الشرف والوطن (وهو ما يرجى إبداله بالتوسّط والتحكيم) لم تزد شجاعة الجنود عن شجاعة فعلة المناجم الذين قد تساوي بينهم لأخطار في التعرّض للهلاك والدّمار. وفي رجاء الراجين أنّ التجنيد الإلزامي رهن الزوال بتقدّم العلم وارتقاء الإنسانيّة ولا يبقى من يرغب في الجندية حينئذ إلا كلّ من ضاقت به دوائر المعاش الثلاث أو كان فيه ميل فطري إلى الفنون العسكرية. فإن كان العلم قد ساوى الجنديّة لسائر الفنون وأنزلها عن سائر المهن من الوجه المعاشي فقلّل الراغبين فيه،ا فأكرم به هاديًا إلى الدّعة والسكون وأنعم به قائدًا للسلم.

٦) إنّ الأساليب العلميّة وروح التحصيل نفسه تنافي الحسد والخصام وسائر العواطف المفضية إلى النزاع. فإنّ التحقيق العلميّ يقتضي التعويل على الفرض وطول الروية والنظر ليصحَّ الاستدلال ويثبت الحكم والاستنتاج. فلقد انقضى الزمان الذي كان فيه يغتصب المغتصب لقب العلم وشهرة المعرفة بسلسلة النسب ومنصة الرئاسة وكثرة الحشد والأشياع ومجالي البذخ البارد والكرم السخيف، وعلت كلمة الحقّ العلميّ الذي لا ينال إلا بكدّ الدماغ في ميدان الدرس الطويل والبحث العميق وصرع الدليل بالدليل حتى يرضى العقل الراجح والطبع الرزين. وعلى ذلك يتآلف العقلاء وإن اختلفت البلاد ويتآخى العلماء وإن تلاحت الحكام. ولا يخفى ما يترتّب على انتشار هذا الروح العلميّ بين شعوب الأرض من حبّ الوئام وكراهة المناوأة والخصام إذ العلم يتساوى في حقائقه الكبار والصغار بين أجناس الناس وحول مائدته تجتمع الخصوم ومن بلسمه تؤسى الكلوم.

ونتائج العلم لا تقف عند هذا الحدّ من خدمةالسلم، بل إنّ لها فوق ذلك اليد الطولى بترقية حياة السلم نفسها وإنضاج أثماره وإدناء مجانيه على الراتعين في رياضه، فهل نعيم هذه الحضارة وعناء هاته المدنية وما تمّ فيها لهذا العهد من أسباب الراحة والرغد التّامَّين تأتَّت بغير العلم وتعم اختراعاته ومكتشفاته ومصنوعاته التي يضيق بتعدادها الزمان ويفل وصفها القلم واللسان؟ ألا فلنذكر أنّ ألوف الألوف من أبطال العلم الحديث اليوم من أطباء ورياضيين وطبعيين على اختلاف الأصول والفروع متجنّدون لخدمة بني الإنسان يبذلون المهج ويفنون أطيب الأعمار

بمكافحة الأمراض البدنية والاجتماعية ومدافعة المتاعب وتخفيف الآلام وتوفير ذرائع أطيب العيش وإطالة الحياة، جيش لجب كثيف من أنصار الإنسانية ودعاة السلام قد أخذت جيوش الحرب والحمد لله بالهزيمة أمام أعلامه، وسيتمّ له عليها النصر بعون القدير حتى تسحق دولة السيف وتمحق وتسود ديانة العقول والأقلام.

ولا ننسى أنّ هذا الجيش العلميّ السلميّ محشود من أطراف الأرض ومختلف الممالك والقبائل والأجناس والألوان، فليس له وجهة سوى دكّ حصون الجهل وفكّ غادة الحقيقة من إسار الغواية والتضليل ولا رابط بين أفراده سوى حبّها المقدّس الرفيع، فأيّ عالم اليوم من أهل الإخصاء والاختصاص أبدى ملاحظة أو قرّر مسألة أو أَحدث بحثًا أو أجلى غامضًا أو اخترع مخترعًا جليلًا أو يسيرًا أقبل على تصفّحه كافة إخوانه المنتشرين على وجه المعمورة، فتوجّهت إليه خواطرهم وأنظارهم، وتناصروا على حقّه الثابت مكدين جاهدين. والذي يزيد بهجة القلوب أنّ أفراد هذا الجيش وإن اختلفت لغاتهم القومية لهم لغة واحدة يتفاهمون ويتناجون بها هي المصطلحات العلمية والعبارات الجبرية والخطوط الهندسية والرسوم الطبيعية، فكلّ ما ينشر بالإنكليزية والفرنسية والألمانية تهافت عليه قراؤهم من جميع الممالك كأنّه يخاطبهم بلسانهم أجمعين، إذا أضفت إلى ذلك ما اشتهر أمره من تيسير وسائل النشر والنقل حسبت ما يكتب اليوم من الآثار العلمية أنّه كتب في كل لسان ونشر في كلّ مكان في الوقت الواحد.

وإذا ذكرت في هذا الباب اجتماع طلّاب العلم من أقطار الأرض في الجامعة

الواحدة العلمية ازددت عجبًا بل رقصت طربًا. فقد ذكر من اعتمدنا عليه في تقرير هذه الأصول أنّ صفوفه في جامعة كولومبيا الأميركية تضمّ الجم الغفير من بريطانيا وجرمانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا والدانمارك وبلغاريا وجنوبي أميركا واليابان، وقد زاد حياة هذا الاتّحاد العلمي هنا أنّهم أصبحوا يتبادلون الأساتذة والخطباء في مناصب التدريس ومنابر الخطابة على اختلاف الممالك واللغات كأنّهم من البلد الواحد واللسان الواحد بلا تفريق، فأيّ عاقل ممن يتمتعون بطيبات هذا الإخاء ويترشّفون زلال هذا الولاء يرضى بفتور هذه العلائق وتكدير هذا المعين الرائق بما يدمّر البلاد ويهلك العباد ويفصم عرى الاتّحاد والعياذ بالله.

٧) ومما يلحق باتّحاد الطلبة المختلفي العناصر من مؤيدات السلم على ما رأيت اشتراك أهل العلم من كافة الأنحاء في عقد المؤتمرات والمجامع والندوات العلمية على تعدّد نزعاتها وأغراضها المجتمعة على توسيع نطاق الأبحاث الفنية المتضافرة على اجتلاء الحقائق المتناصرة على إعلاء كلمة العلم وبثّ دعوته بين أهل الأرض ممّا يعدّ أقوى الدواعي لشدّ عرى الوداد والسلام العام، ولقد أخذ والحمد لله عدد هذه اللجان العلمية بالازدياد إلى ما لا يكاد يحلم به غير الواقف على إحصائه. فإنّ الندوة المركزية للجان العلمية الدولية في (بروكسل) عددت ٢٨٠ فرعًا منها، وأحصى غيرها ٦١٤ ندوة علمية منتشرة في الممالك المتفرقة، والمجامع المختصّة بفروع الطب والهندسة تتبادل أماكن جلساتها السنوية في جميع البلدان ولا حاجة إلى بيان ما ينجم عن اشتراك علماء الأرض في هذه المحافل والمحالفات

العلميّة من بركات التآلف والتعارف وعقد الخناصر على توحيد الغاية الشريفة ألا وهي نصرة لواء العلم الذي لا ينضوي تحته إلا أنصار السلم.

وإنّ ما تثلج له قلوب أبناء السلام ما نشأ عن غروس الاتّحاد في هذه الجمعيات العلمية من تأليف لجان للإحسان العام ومعالجة أمراض الاجتماع، ولاسيّما تأسيس المؤتمرات السلمية القائمة على الدعوة إلى السلم وإبطال الحرب وإطراح السلاح على التدريج واعتماد التحكيم في فضّ كلّ خلاف، وأشهر هذه المؤتمرات محكمة لاهاي التي ظهر من باكورات ثمارها لهذه الأعوام ما قرّت به عيون الأنام، وأصبح من أوطد الآمال وفرتها ونماؤها على توالي الأيام.

وعلى الجملة يقال: ها إن ذلك التواد بين طلّاب العلم مع هذا الاتّحاد في عقد اللجان العلمية بلغ من حال النماء والاتّساع بحيث أصبح من مأمول أنصار السلم القريب تأسيس جامعة أرضيّة دولية يشترك فيها مالك المعمور على الإطلاق، فيقول هؤلاء المتفائلون بإصلاح الإنسانية ما المانع ترى من أن تنقص كلّ دولة ولو جزءًا من نفقاتها الحربية وتحوّله إلى هذا الغرض المقدّس العميم النفع فينشأ عن هذا المشروع الجليل المبارك ما يستأصل جراثيم النزوع إلى الحرب والخصام من نفوس أهل الأرض يومًا بعد يوم، فضلًا عما ينجم من سعة دائرة هذا الاشتراك ويفيض بها على العباد من غيوث البركات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية التي يطرب لتصوّرها الفؤاد. قالوا ويحسن أن تقام هذه الجامعة (المسكونية) في هولندا، أو بلجيكا أو سويسرا وربّما كان الأفضل أن يكون موضعها في قطر تشترك في ملكه

عامة الدول كجزيرة من جزر الخليج أو(مونت كارلو) حيث تقرب طريقه على الطلّاب ويفوق هواؤه جودة وتتوفّر في محيطه أسباب الراحة في المعاش، فإذا أنعم الزمان على بني الإنسان بهذه الأمنية فقدّر ولا حرج ما يتأتّى عن هذه الجامعة الدولية من مزيلات أسباب الشقاق ونشر دواعي الوفاق، فإن ما ينبثق من أنوارها لتنشر في سائر الجامعات المكانية بسرعة البرق، فيجري من هذا القلب العلمي العام دم حيويّ جديد مجيد إلى أطراف الأرض كما يجري الدم البدني إلى أطراف الجسم، ويغص ذاك القطب العقلي بما يسحر الخيال تصوّره من المكاتب والمتاحف والمجامع العلميّة، ومن ذاك الجزع لكبير تتفرّع لجان مختصة لكلّ فرع من الأبحاث التي لا يأخذها العد وترسل البعثات الفنية في أنحاء الأرض للكشف والتحقيق على نفقات أرباب المال أو الاعتماد على خزائن الحكومات المشتركة المقاصد في تعميم النفع. وإنّ ما ينفق على العلم بعد ذلك ليس إلا عشر معشار الدَّين الذي طوّق به أعناق المنفقين بل قطرة من بحار النعم التي غمر بها المحسنين، فإنهّم لم يذوقوا طعم الاتّحاد إلا من فضله العميم ولا وردوا مورد الوئام والسلام لولا أنّ مهد لهم نهجه القويم.

هذه خلاصة ما يرجو أولئك العقلاء من غلبة سلطان العلم على العقول في نبذ الحرب واعتماد السلم، إلّا أن هناك جماعة من أهل الفلسفة الدينية يقولون مع تسليمهم بهذه النتائج العلمية: إنّ داء البشرية أعمق وأوبل من أن يشفى بمثل هذه الضرورات القسرية مادامت القلوب مجبولة بعناصر البغضاء والطمع والحسد والتعدّي والجور، ونتائج العلم وإن سطعت أنوارها واتّضحت آثارها

لعين الذكي البصير فقد تعمي نزعات الشرّ الكامنة أحدَّ الأبصار، كما يشاهد إلى اليوم من مطامع القويّ بالضعيف حتّى في هذا العصر الأنور في ذرى المدنية وأبهج ديارها، فصحّ فيهم قول الكتاب العزيز (إنّهم يتنبؤون، ويرون رؤى سلام ولا سلام حز ١٣: ١٦٩ وأنّهم هم (المخاطبون في السلام والشرّ في قلوبهم حز ٢٨: ٣) بل هم مصداق قول أرميا النبي (من صغيرهم إلى كبيرهم كلّ واحد مولع بالربح.. وكلّ واحد يعمل بالكذب، ويشفون كسر بنت شعبي على عثم قائلين سلام ولا سلام ص٦ و ١٢ و ١٤).

فيرى هؤلاء الحكماء أنه لا سلام ما لم تتجدّد قلوب البشر المفطورة على الشرّ بروح من عنده تعالى فينضوون تحت لواء الإله الذي (يدعى اسمه عجيبًا مثيرًا إلهًا قديرًا أبًا أبديًا رئيس السلام. ا ش ٩: ٦) و (يتكلّم بالسلام للأمم وسلطانه من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصي الأرض. ز ك ٩:١٠). لأنّه (حينما تكون – أحكامه تعالى – في الأرض يتعلّم سكان المسكونة العدل ا ش ٢٧: ٩). وحينئذٍ (وليس إلا حينئذ) (... يطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل. لا ترفع أمّة على أمة سيفًا ولا يتعلّمون الحرب في ما بعد. بل يجلسون كل واحد تحت كرمته وتحت تينته ولا يكون من يرعب... م ي ٤ ٣ – ٥) والهناء كل الهناء لمن كان سلام الله في قلبه فعاش تحت لواء السلام وكان من صانعي السلام.

آثــاره المخطـوطــة:

١ – كتاب «تربية الأطفال ومدارسهم»

أرسل الدكتور عدنان الخطيب[١] أمين مجمع اللغة العربية بدمشق عند كتابته بحثًا يترجم فيه حياة وآثار الأستاذ قندلفت رسالة إلى ابنته أليس قندلفت يسألها عن بقية آثار والدها العلمية فأفادته بأن جميع كتب أبيها وأوراقه فقدت للمرة الثانية عند وفاته في بيروت خلال وجودها في الولايات المتحدة الأمريكية، وبعد رجوعها للوطن لم تعثر سوى على مخطوطة واحدة وهي ترجمة كتاب المربية الإيطالية ماريا منتسوري[٢] وعنوانه: «تربية الأطفال ومدارسهم»، وأنها تقوم ببذل جهودها لنشرها في القاهرة[٣].

---

(١) عـدنان الخطيـب (١٩١٤ – ١٩٩٥م)، دكتـور في الحقـوق، وهـو قـاض ولغـوي ومؤلـف دؤوب.

– انظر: عدنان الخطيب للدكتور نزار أباظة، مطبوعات مجمع اللغة العربية، ٢٠١٥م.

(٢) ماريا مينتسوري (١٨٧٠ – ١٩٥٢) مربية وطبيبة وفيلسوفة، وهـي أول طبيبـة إيطاليـة، مـا زالت أعمالها حول تربية الطفل تدرّس حتى يومنا هذا.

- Em standing, Maria Montessori, Her Life and work, New York, ١٩٨٤, P.٣٨ – ٤٠

– الموسوعة العربية، دمشق، هيئة الموسوعة العربية، ط١، ٢٠٠٨، مج ٢٠، ص١٢٥ – ١٢٧.

(٣) مجمع اللغة العربية في خمسين عامًا، ص١٢٣.

٢- كتاب «مدرسة الغد»

وقد ذكر الأستاذ متري قندلفت في كتابه «المدرسة والاجتماع» أنه عاكف على ترجمة كتاب «مدرسة الغد» وهو من تأليف الدكتور جون ديوي، وأنه يمني النفس لإخراجه إلى العالم العربي ليدخل في مجال التعليم لما له من فائدة على النشء الجديد، ويتضمن الكتاب الكثير من شروح التطبيقات الملائمة للأماكن والأشخاص ويأخذ طابعًا جديدًا لفن التربية ندر وجوده[١].

(١) المدرسة والاجتماع، ص٦.

المصادر والمراجع

١- الكتب

- الأعلام، خير الدين الزركلي، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م.

- تاريخ المجمع العلمي، أحمد فتيح، مطبوعات مجمع اللغة العربية، مطبعة الترقي بدمشق، ١٩٥٦م.

- طرق الأمان لمحدّث الإيمان، الأب بويد، ت. متري قندلفت، المطبعة الأمريكانية، بيروت، د. ت.

- مجمع اللغة العربية، تعريف تاريخي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ٢٠٠٩م.

- مجمع اللغة العربية في خمسين عامًا، د. عدنان الخطيب، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، مطبعة الترقي، د.ت.

- المجمعي القانوني الدكتور عدنان الخطيب، د. نزار أباظة، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ٢٠١٥م.

- مجموع شعري، المبكيات، منظومات في تأبين يوحنا عنحوري، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٨٩٠م.

– محاضرات المجمع العلمي بدمشق، مطبوعات المجمع العلمي، المطبعة الحديثة، ١٩٢٥م.

– مدرسة الصلاة، القس اندرو فري، ت. متري قندلفت، المطبعة الأمريكانية، بيروت، ١٩٠٩م.

– المدرسة والاجتماع، جون ديوي، ت. متري قندلفت، دار المعارف، مصر، ١٩٢٨م.

– مذكراتي: صفحات من تاريخ سورية الحديث (١٩٢٠ – ١٩٥٨م)، حسن الحكيم، ط١، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٦م.

– مصادر الدراسة الأدبية، يوسف أسعد داغر، المطبعة الألفية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٠م.

– معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ط١، الكويت، ٢٠٠٨م.

– من هو في سورية، المطبعة الأهلية، دمشق، ١٩٤٩م.

– موسوعة حلب المقارنة، الأسدي خير الدين، ط١، جامعة حلب، ١٩٨٧م.

– الموسوعة العربية، هيئة الموسوعة العربية، دمشق.

- Em standing, Maria Montessori, Her Life and work, New York, 1984.

٢- الدوريات والمجلات:

- جريدة المقتبس،
- مجلة الحسناء،
- مجلة اللغة العربية بدمشق،
- مجلة المقتطف،
- مجلة النعمة،

٣- المحاضرات:

- محاضرة بعنوان: «المجمعيون الأوائل، جهودهم في التعريب وآراؤهم الإصلاحية» ألقاها الأستاذ الدكتور مازن المبارك في الندوة التي أقامها مجمع اللغة العربية بدمشق، تحت عنوان: «أضواء مجمعية على مجالات الإصلاح» في ١٤ و ١٥ كانون الأول ٢٠١٤.